بُحــوث في مَعارف الإيمـــان

المجلد الأول

التوحيد

دراسة قرآنية وتحليلية في منهج العَلَمين محمد حسين الطباطبائي وكمال الحيدري

إعداد:: ليندا عبد الله



الطبعة الأولى: 2026

بُحـوث في مَعارف الإيمـان

المجلد الأول

التوحيد

دراسة قرآنية وتحليلية في منهج العَلَمين محمد حسين الطباطبائي
وكمال الحيدري

إعداد: ليندا عبد الله

الطبعة الأولى: 2026

بيانات الإصدار وحقوق النشر©

بُحوث في مَعارف الإيمـان – المجلد الأول دراسة قرآنية تحليلية في أصول التوحيد إعداد: ليندا عبد الله

يعتمد هذا العمل بشكل أساسي على الإسهامات العلمية لكل من **العَلّامة السيد محمد حسين الطباطبائي** و**العَلّامة السيد كمال الحيدري.** وقد جرى تحليل وتركيب محاضراتهما ومؤلفاتهما ضمن إطار معرفي مستقل لاستكشاف مباحث علم التوحيد.

ISBN 978-1-0674203-1-4 :الرقم الدولي المعياري للكتاب

الطبعة الأولى: 2026

“أَوَّلُ الدِّينِ مَعرفَتُهُ، وكَمالُ مَعرفَتِهِ التَّصديقُ بهِ، وكَمالُ التَّصديقِ بهِ تَوحيدُهُ”

الإمام علي عليه *السلام*

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، حمداً طيباً مباركاً كما يليق بجلال وجهه وعظيم سلطانه، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، نبينا محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وعلى أهل بيته الطيبين الطاهرين.

المقدمة

في عالم تتسارع فيه الأحداث وتتزاحم الأصوات، أُهملت فيه الأسئلة الكبرى وغابت لحظات التأمل في الغاية والوجود، يجد الإنسان نفسه في دوامة بحث لا تنتهي عن الحقيقة والخالق. وسيطر على بعض العقول التركيز على المادة والصورة، فتغيب الفطرة عن التأمل في معنى الحياة، والروح عن الربط بين العقل والإيمان، والسلوك عن الاستناد إلى القيم الراسخة.

من هنا ينبع دافع هذا البحث، المرتكز على الإيمان بقدرة القرآن الكريم على إحياء القلوب وهداية العقول؛ فالمشروع لا يهدف إلى أن يكون مجرد كتاب، بل نافذة يطل منها القارئ على أنوار الهداية الإلهية، ويجد فيها ما يُعينه على تلمّس طريق العودة إلى الفطرة الأصيلة.

البداية من القرآن الكريم والتدبر العقلي

إن البداية الحقيقية لمعرفة الله تنطلق من «**القرآن الكريم**»؛ كونه الكتاب الذي لا يفصل بين الهداية الروحية والاستدلال العقلي، بل يخاطب الإنسان بكيانه الجامع بين الفطرة والروح واللبّ. فالقرآن لا يطالب بـ «إيمان أعمى»، بل يستثير الكوامن العقلية عبر دعوة مفتوحة لاستنطاق ملكوت السماوات والأرض، كما في قوله تعالى:

﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ**﴾ (النساء: 82).

ومن خلال هذا التدبر، يبرز النظام الكوني المتقن — من دوران الأجرام إلى انتظام النظم الحيوية — ليس كمجرد ظواهر مادية، بل كـــ "آيات" دالة على خالق حكيم؛ فالقرآن يربط الإدراك الحسي باليقين العقلي عبر طرح أسئلة وجودية تهزّ أركان الغفلة، كما في قوله سبحانه:

﴿**أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ**﴾ (الطور: 35).

هذا المنهج القرآني الذي يزاوج بين «**البرهان العقلاني**» و«**الاطمئنان الروحي**» هو الذي جذب عقولاً عالمية باحثة عن الحقيقة، فاعتنقوا الإسلام عن بصيرة ويقين، ومنهم:

موريس بوكاي، وكات ستيفنز (يوسف إسلام)، والبطل العالمي محمد علي كلاي، والباحثة مارغريت ماركوس (مريم جميلة)، ومالكوم إكس، والفيلسوف محمد إقبال؛ مما يرسخ حقيقة أن القرآن ليس نصاً تاريخياً، بل هو حجة إلهية باقية وقائمة على الناس جميعاً في كل زمان ومكان.

رسالة البحث وأهدافه

في ظل تحديات العصر، تبرز الحاجة المُلحة لإعادة تأسيس المعرفة التوحيدية القرآنية. لقد عانت دراسات التوحيد المعاصرة إما من "التجريد اللاهوتي الجامد" الذي يفصل العقيدة عن الحياة، أو «**التبسيط السطحي**» الذي لا يقدم حماية عقلية أمام الشبهات. ومن هذا المنطلق، تنطلق رسالة هذا البحث لبناء منظومة معرفية شمولية تحقق مساهمة مزدوجة:

* **على المستوى النظري**: يهدف البحث إلى تأصيل المفهوم الجوهري للتوحيد عبر تحليل نموذج «**سورة الإخلاص**»، وبلورة طرق المعرفة الإلهية (العقل والفطرة والوحي)، وتقديم منهج نقدي مُحكم لمعالجة الانحرافات الفكرية في سياق العصر.

* **على المســـتوى التطبيقي:** يهدف البحث إلى إظهار الأثر العملي الوجودي للمعرفة الإلهية، من خلال تأسيس مفهوم «**التخلُّق بآثار الأسماء الحسنى**»، وبيان كيف تتحول العقيدة إلى دافع أخلاقي وسلوكي يُسهم في تقويم الفرد وتأسيس مجتمع يقوم على العدل والإحسان.

أهمية البحث ومنهجيته

تكمن القيمة الجوهرية لهذا البحث في إعادة تفعيل "العقل الإيماني" كجســـرٍ لليقين، معتمداً المنهج التحليلي النقدي والمقارن لاستقراء النصوص القرآنية بأسلوب يجمع بين الدقة والبساطة. يستند البحث في منطلقاته المنهجية ورؤيته المعرفية إلى أطروحات العَلَمين الكبيرين **العلامة السيد محمد حسين الطباطبائي** و**العلامة السيد كمال الحيدري**.

وقد عَمِلتُ في هذا البحث على استخلاص المادة العلمية من محاضرات السيد كمال الحيدري وتوثيقها بأمانة أكاديمية، مع إضافة مساهمات بحثية مستقلة شملت فصولاً في النقد والتحليل، وربط الجوانب النظرية بالواقع العلمي والعملي. يهدف هذا المزج بين المنهج الأصـــيل ورؤية المُعدّة الخاصـــة إلى تقديم أطروحة عقدية متكاملة تلبي تطلعات القارئ المعاصر.

مسوغات الاختيار والمنهج التحليلي

قد يتساءل القارئ عن سبب ارتكاز هذه الدراسة على المنهج التحليلي لكل من العَلّامة السيد محمد حسين الطباطبائي والعَلّامة الســـيد كمال الحيدري على وجه الخصـــوص. إن هذا الاختيار يتجاوز حدود الانتماء المذهبي ليلامس القيمة المعرفية والمكانة المنهجية التي يقدّمها هذان العلمان في فهم النص القرآني؛ وذلك لعدة أسباب:

أولاً، يمثل العَلّامة الطباطبائي، من خلال مشروعه التفسيري «تفسير الميزان" »، مدرسة رائدة في تحليل بنية النص القرآني عبر منهج تفسير القرآن بالقرآن، مع براعة في المزاوجة بين الاستدلال البرهاني والظهور اللفظي.

ثانياً، تميزت أطروحات السيد كمال الحيدري بالقدرة على إخراج القضايا الكلامية من حيّز التجريد إلى أفق المعالجة النقدية الحديثة، مما يسمح بمواجهة التحديات الفكرية المعاصرة بلغة معرفية متجددة. وعليه، فإن وسم هذا البحث بـ**«دراسة تحليلية»** لم يكن مجرد وصفٍ إجرائي، بل ضرورة تمليها طبيعة المادة العلمية؛ إذ يسعى البحث إلى تتبع المرتكزات العقلية والعلمية لدى هذين العَلَمين، وإعادة قراءة مناهجهما الرصينة ضمن قالب أكاديمي يقدّم هذه الأطروحات العميقة كجسرٍ معرفي يربط بين أصالة التراث العقدي وبين تطلعات الباحث المعاصر عن اليقين، بغض النظر عن خلفيته العلمية أو الفكرية.

هيكلية البحث ومشروع السلسلة

يُمثّل هذا المجلد **اللَّبنة الأولى من سداسية بحثية** متكاملة بعنوان **«بحوث في معارف الإيمان»** ."وقد صُمم هذا المشروع ليكون رحلة معرفية متدرجة، حيث يتناول كل مجلد ركيزة أساسية من ركائز الوعي الإيماني، وذلك وفق الترتيب الآتي:

1. **المجلد الأول:** **«التوحيد»** (دراسة تحليلية في مفاهيم المعرفة التوحيدية).
2. **المجلد الثاني:** **«النبوة»** (دراسة في المعرفة النبوية بمنظور قرآني وتحليلي).
3. المجلد **الثالث:** **«الإمامة»** (دراسة تحليلية في معنى استمرارية الهداية والمعرفة)
4. **المجلد الرابع:** **«المعاد»** (دراسة قرآنية وفلسفية لمنازل الآخرة وعلاقتها بالعدل الإلهي).
5. **المجلد الخامس:** **«السنن الكونية في القرآن الكريم»** (قراءة قرآنية علمية لآيات الكون).
6. **المجلد السادس:** **«المعرفة الأخلاقية والسلوكية»** (منظومة القيم والسلوك في القرآن الكريم).

ويهدف هذا العمل بمجلداته الستة إلى وضع القارئ عند عتبة اليقين المعرفي، ليشرع في طريق السير والسلوك مستفيداً من نور القرآن ومؤمناً عن بصيرةٍ مستنيرةٍ وإرادة حرة.

وإنني إذ أضع هذا الجهد بين يدي القارئ، أشرع فيه متوكلةً على الله وحده، فما كان فيه من توفيق وسداد فمن فضل الله وحده ومنّه، وما كان من نقص فمن نفسي.

﴿وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ (هود: 88).

أسأل الله أن يبارك في هذا العمل، وأن يجعله نافعًا لنا ولكم، وخالصًا لوجهه الكريم.

أسس المعرفة الإلهية

يعالج هذا القسم مفهوم التوحيد من حيث تعريفه وأساسه العقلي، مع قراءة تحليلية لسورة الإخلاص بوصفها التعبير القرآني المكثف عن العقيدة التوحيدية، ومناقشة أبرز الانحرافات الفكرية المرتبطة بها نقدًا وتصحيحًا.

المعرفة التوحيدية: ماهية التوحيد

تمهيد: ماهية العقيدة

لفهم ماهية التوحيد فهمًا دقيقًا، لا بدّ من التوقف أولًا عند معنى مفهوم "العقيدة" ذاته. ورغم أن هذا المصطلح قد يبدو بديهيًا لدى المتخصصين في الدراسات الدينية، فإن المقاربة المعرفية تقتضي عرضه من جوانبه الأساسية والعامة، تمهيدًا لاستخدامه بوصفه مفهومًا محوريًا في الفصول اللاحقة.

ذلك أن تحديد معنى العقيدة يساهم في ضبط الإطار المفاهيمي للبحث، ويمنع الالتباس بين التصور الإيماني القائم على المعرفة، وبين مجرد الموروث الثقافي الذي قد يفتقد إلى الوعي واليقين.

تعريف العقيدة في اللغة والدين

تُعرَّف العقيدة في اللغة بأنها ما ينعقد عليه القلب ويجزم به، وهي مشتقة من الجذر اللغوي "عقد"، الذي يدل على الشدّ والتوثيق والإحكام. ومن هذا المعنى اللغوي، تُشير العقيدة إلى الإيمان والتصديق الجازم الذي لا يعتريه شكّ أو تردد. أمّا في الاصطلاح الديني، فتُطلق العقيدة على مجموعة الأصول والمبادئ التي يؤمن بها الإنسان، وتشكل الإطار المرجعي لفهمه للوجود، وتنظيم علاقته بالله تعالى، وتوجيه رؤيته نحو الكون والحياة والإنسان.

معنى التوحيد

يُعدّ التوحيد في العقيدة الإسلامية أهمَّ الأصول الاعتقادية وأساس الدين، إذ تتفرع عنه سائر المعارف القرآنية، كالإيمان بالنبوة، واليوم الآخر، والعدل الإلهي، والإمامة. ويتحقق من خلال الإيمان بوحدانية الله تعالى وتفرده في الذات والصفات والأفعال. وهو جوهر دعوة جميع الأنبياء والرسل والرسالات السماوية.

وفي هذا الســياق، يبيّن العَلّامة الســيد الطباطبائي أن التوحيد هو الركيزة التي تتحدد على أســاســها معالم العقيدة الإســلامية وتتمايز عن غيرها، حيث يرتكز الدين في جوهره على تنزيه الله تعالى عن كل شــريك في ذاته وصفاته وأفعاله.

شهادة التوحيد

أكّد القرآن الكريم على عظمة كلمة التوحيد ومكانتها المحورية في العقيدة الإسلامية، كما في قوله تعالى:

﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ**﴾ (محمد: 19).

وتشير هذه الآية إلى أن المعرفة بوحدانية الله تسبق سائر الممارسة التعبدية، إذ يبدأ الخطاب الإلهي بالأمر بالعلم قبل الأمر بالعمل. وفي هذا الســياق، يوضــح الســيد كمال الحيدري أن الله ســبحانه وتعالى يأمر نبيَّه (صــلى الله عليه وآله وســلم) بالتمســك بعلم التوحيد، لما تمثله كلمة التوحيد **«لا إله إلا الله»** من مركزية في بناء العقيدة، إذ لا يتحقق التوحيد إلا من خلال هذه الشهادة الجامعة.

ويرى الســيد كمال الحيدري أن القرآن الكريم يبيّن من خلال هذه الآية أن: **«من أحاط بعلم التوحيد فقد أحاط بجميع المعارف الدينية، لأن التوحيد هو جوهر الدين وأســاســه، فإذا اختل هذا الأســاس اختلت ســائر المعارف الاعتقادية»**.

وقد وردت روايات عديدة في بيان عظمة كلمة التوحيد، من ذلك ما رُوي عن الإمام جعفر الصــــادق (عليه الســلام)، قال: **«من قال لا إله إلا الله مخلصًــا دخل الجنة، وإخلاصــه أن تحجزه لا إله إلا الله عمّا حرّم الله عز وجل»**.

أقسام التوحيد

درج علماء الكلام والفلاسفة المسلمون، عند تناولهم لمسألة التوحيد، على تقسيمه إلى ثلاثة أقسام رئيسية، هي: **«التوحيد الذاتي، والتوحيد الصفاتي، والتوحيد الأفعالي»**.

ولا يُقصد من هذا التقسيم تعددًا في حقيقة التوحيد، بل هو تقسيمٌ تحليلي يهدف إلى توضيح مراتب فهم وحدانية الله تعالى من حيث الذات والصفات والأفعال. ويُقسَّم التوحيد الذاتي بدوره إلى **«التوحيد الأحدي» «والتوحيد الواحدي»**. فالتوحيد الأحدي ينفي التركيب عن الذات الإلهية المقدسة، كما في قوله تعالى:

﴿**قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ**﴾ (الإخلاص: 1).

أمّا التوحيد الواحدي، فينفي الشبيه والنظير والمثيل والشريك عن الله تعالى، كما في قوله تعالى:

﴿**وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ۖ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ**﴾ (البقرة: 163).

وتقوم العلاقة بين التوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي على ترابطٍ جوهري، إذ إن الإيمان بوحدة الله في ذاته، بمعنييها الأحدي والواحدي، يُشكّل الأساس الذي تتفرع عنه سائر مراتب التوحيد. وعليه، فإن التوحيد الصفاتي والأفعالي لا يُعدّان إلا تجلياتٍ للتوحيد الذاتي في مراتب الخلق والوجود.

ومن هنا تتضح أهمية معرفة الأسماء والصفات الإلهية، بوصفها الطريق الممكن لمعرفة الله تعالى على نحوٍ صحيح، والطريق المؤسس لعبادته. فكلما كانت معرفة الإنسان بأسماء الله وصفاته أدقّ وأصفى، تأصّلت لديه العبادة الصحيحة، بوصفها تعبيرًا واعيًا عن هذه المعرفة، لا مجرد ممارسة شكلية.

المعرفة مدخل إلى التوحيد وأساسه

وبما أنّ بوابة التوحيد وأساسه المتين هي المعرفة التوحيدية الصحيحة، فإن هذه المعرفة لا تتحقق إلا من خلال فهم أسماء الله الحسنى وصفاته الإلهية كما وردت في القرآن الكريم.

ومن هنا تبرز ضــــرورة التنبيه إلى أن الإنســـان قد يخطئ في معرفة خالقه نتيجة تصـــوّرات تنشـــأ عن «التشبيه» أو «التمثيل»، فيُسقِط صفات المخلوق على الخالق، وهو ما يتنافى جوهريًا مع المبدأ القرآني:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ۖ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: 11).

وفي مقابل هذا الانحراف التصوري، تظهر إشكالية الاكتفاء بالـــممارسة التعبدية الشكلية بمعزل عن الوعي المعرفي، مما يُفرغ العبادة من بُعدها الروحي العميق. إذ إن العبادة في جوهرها لا تنفصـــل عن المعرفة الصحيحة التي تمنع الالتباس بين التصور الإيماني القائم على اليقين، وبين مجرد الموروث الثقافي الساكن. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الترابط بين العلم والقيمة الوجودية للإنسان في قوله تعالى:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (الزمر:9).

وعلى هذا الأساس، يصبح التوحيد هو المركز الذي ترتكز عليه العقيدة، ويتحقق الإيمان بوصفه عملية بناء مستمرة، يتداخل فيها التصديق العقلي مع اليقين القلبي، ليرتقي الإنسان في عبادته طردياً مع مستوى وعيه ومعرفته.

البعد العملي في منهجية التوحيد

يتجلى البعد العملي للتوحيد في أنّه ليس مجرد اعتقاد نظري ســـاكن، بل منهج حياة متكامل يترجم المعرفة التوحيدية إلى سلوكيات وأفعال واضحة. فالإنسان الموحد يربط بين إدراكه لعظمة الخالق وصفاته وبين سلوكه الأخلاقي والاجتماعي، بحيث تنعكس قيم التوحيد في كل تصرفاته، لتصبح العبادة تعبيراً حقيقياً عن المعرفة.

ويشـــير الســـيد كمال الحيدري إلى أن المتابعة الدقيقة لنهج المعصـــومين (عليهم الســـلام) تُظهر أن التوحيد الحقيقي منظومة تشـــمل: الاعتقاد الصـــحيح، والأخلاق الكاملة، والعمل الصـــالح؛ فكل عنصـــر منها يدعم

الآخر. ويوضــح ذلك بقوله: **«الذي ينفع الناس هو التوحيد، ولذا نجد أن القرآن يربط الكلمة الطيبة بالعمل الصالح، فالأصل الصاعد هو التوحيد، والعمل الصالح يرفعه».**

ويعزز هذا المعنى العَلّامة الطباطبائي، مؤكدًا أن التوحيد لا يقتصر على الاعتراف الذهني بوجود الله الواحد، بل يقتضــي التزامًا عمليًا دائمًا، ورفضًــا لكل صــور الشــرك، سـواء كان شـركاً ظاهراً أو باطناً (كالرياء وتعلق القلب بغير الله). ومن هنا، يصبح التوحيد هو الجذر الذي تتفرع منه جميع الأخلاق والسلوكيات، محققاً بذلك التكامل المنشود بين المعرفة والعبادة والعمل الإنساني.

المعرفة التوحيدية وأسسها العملية

يتبيّن مما سبق أن التوحيد في التصور الإسلامي ليس مجرد انفعال وجداني أو فكرة ذهنية، بل هو **«منظومة وجودية متكاملة»** تُشــكّل أســـاس الوعي والســـلوك. فالمعرفة التوحيدية تمثّل العلة الغائية للعبادة؛ إذ تظل الممارسة التعبدية أسيرة الشكلية ما لم تنهض على وعي بالأسماء والصفات.

وهنا يبرز التلازم العضـوي بين العلم والعمل؛ فالمعرفة هي **«الأصـل الصـاعد»**، والعمل هو **«القوة الرافعة»**، وفق رؤية السـيد كمال الحيدري المسـتندة لنهج المعصـومين (عليهم السـلام). وهذا يقتضــي نفيًا مسـتمرًا لكل أشـكال الشـرك، لا سـيما **«الشـرك الخفي»** المتمثل في الانقطاع العملي عن الله، وهو ما شـدّد عليه العَلّامة الطباطبائي بضرورة دوام الالتزام السلوكي.

وبهذا، يمهد المحور الأول الطريق للانتقال من التأصـــيل المعرفي العام إلى التطبيق القرآني في **«ســـورة الإخلاص»**، بوصفها الهوية الجامعة للتوحيد.

تأملات في سورة الإخلاص

بعد أن اتّضح معنى التوحيد وأهميته المحورية في بناء العقيدة الإسلامية، كان من الضروري تخصيص فصل يُبرز هذا البعد العقائدي في أحد أوضـح تجلياته القرآنية. وتُعدّ سـورة الإخلاص من أبرز سـور القرآن الكريم التي أرست الأساس الجوهري لعقيدة التوحيد، وفتحت آفاقًا عميقة في المعرفة الإلهية.

ترتكز هذه السورة المباركة في آياتها الأربع على بيان وحدانية الله تعالى وتنزيهه المطلق عن الشريك والمثيل، فتؤكد أن الله واحد في ذاته، وأسمائه، وصفاته، وأفعاله، وهو الكمال المطلق الذي لا يعتريه نقص ولا يشبهه شيء من مخلوقاته، لتشكّل بذلك القاعدة الصلبة التي تقوم عليها سائر أصول الدين ومقوماته.

سُمّيت هذه السورة بـــ **«الإخلاص»** لأن مضامينها تخلص العقيدة من شوائب الشرك والتشبيه؛ فمن آمن بها إقراراً واعتقاداً، أخلص توحيده لله تعالى.

وقد ورد في الروايات أن من قرأها تعظيماً وإيماناً أخلصـــه الله من النار، لما تحمله من تجريد كامل للعقيدة. وتُعرف كذلك بـــ **«سورة التوحيد»** لتقريرها الصريح لوحدانية الحق جلّ وعلا في ذاته وصفاته وأفعاله، حتى غدت **«"كلمة التوحيد»** مرادفة لــ **«كلمة الإخلاص»** في أدبيات العقيدة، باعتبارها التعبير الأسمى عن صفاء الاعتقاد ونقاء الإيمان.

أما عن سبب نزولها، فقد مثّلت السورة رداً حاسماً على تساؤلات مشركي مكة وبعض أهل الكتاب حين سألوا النبي (صـلى الله عليه وآله وسـلم) عن «نَسَـبِ **الله**»، فجاء الوحي بهذا البيان الموجز والجامع، ليقدّم تبياناً قرآنياً يقطع الطريق على أي تصـور«تجسـيمي» أو «مادي» في حق الخالق جلّ وعلا، ويؤسـس لمفهوم التوحيد المطلق في أدق صورة.

أهمية السورة المباركة وفضلها

تتجلّى أهمية ســـــورة الإخلاص في بعدها العقائدي العميق، إذ تمثّل نموذجًا قرآنيًا مكثّفًا للتوحيد الخالص، وتضع أسس المعرفة الإلهية ضمن إطار معرفي متكامل يقوم على تنزيه الذات الإلهية عن كل شائبة نقص أو تشـبيه. ومن خلال آياتها الموجزة، ترسـم السـورة معالم العقيدة التوحيدية بصـورة واضـحة، تجعلها مدخلًا أساسياً لفهم رسالة الإسلام في جوهرها العقدي.

وقد ورد في فضل هذه السورة أنها تعدل «**ثلث القرآن**»، وهو تعبير لا يُراد به التماثل العددي، بل الدلالة على عمق المضــمون الذي تحمله، إذ تختزل الأصــول الكبرى للعقيدة القرآنية؛ فالتوحيد الذي تكرســه الســورة هو الركيزة التي تســتدعي ضــرورة النبوة، ومنه يتجلى معنى المعاد والعدل الإلهي بوصــفهما تجلّيات ضــرورية لحكمة الله وكماله.

وبهذا لا تكون السورة ثلثاً من حيث الكم، بل هي الثقل المعرفي الذي يمنح بقية أركان الدين معناها وجوهرها، مما يجعلها عصارة التوحيد وروحه الجامعة.

ملاحظـة منهجية

يعتمد شرح وتفسير آيات سورة الإخلاص على رؤية العَلّامة السيد محمد حسين الطباطبائي في كتابه المعتبر «**الميزان في تفســـير القرآن**»؛ إذ يتميز هذا التفســـير بالعمق والتحليل الدقيق للمعارف الإلهية، مما يجعله مرجعًا موثوقًا لفهم السياق العقائدي والروحي للسورة المباركة.

ويهدف هذا المنهج إلى توضيح كيف أن معرفة الذات الإلهية وصفاتها وأفعالها في ضوء القرآن تُشكّل الركيزة الأساسية لبنية العقيدة الإسلامية، وتمنح المسار المعرفي والتعبدي بُعداً متكاملاً يوفّق بين مقتضيات العقل والتجليات القلبية.

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿1﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿2﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿3﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ ﴿4﴾.

الآية الأولى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ ﴿1﴾

* **«قُلۡ»**

تبدأ السورة بخطاب إلهي موجه للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم)، وهو أمرٌ بتبليغ حقيقة التوحيد الخالص وإعلانها للناس ككلمة فصل لا تقبل التأويل. ويشير العَلّامة الطباطبائي إلى أن تصدير السورة بـ **«قُل»** يجسّد مقام الرسالة في نقل الوحي كما هو، ليكون جواباً حاسماً يقطع تساؤلات المشركين واليهود حول **«"نَسَبِ الحق»** وحقيقته.

* **«هُوَ»**

يشير الضمير **«هو»** هنا، بحسب (تفسير الميزان) **لـ** العَلّامة الطباطبائي، إلى الذات الإلهية التي لا تُدرَك بالحواس، وإنما تُعرف بآثارها وصفاتها، وهو تعظيم وتنزيه لله سبحانه وتعالى. فكل صفة من صفاته، مثل الخلق والرحمة والعلم، تُظهر جانباً من كماله المقدس، وتسمح للإنسان بفهم بعض من **«عظمة الذات التي لا يحاط بها علماً»**.

* **«الله»**

اسم الجلالة وهو "الاسم العلم للذات المقدسة" والجامع لكل صفات الكمال والجمال، والمنزّه عن كل نقص. ويؤكد العَلّامة الطباطبائي في (تفسير الميزان) أن هذا الاسم هو المرجع الذي تعود إليه سائر الأسماء الحسنى، فهو يدل على **«واجب الوجود»** المستغني بذاته عن كل ما سواه.

ومن خصائص هذا الاسم لغوياً وعقدياً أنه **«موصوفٌ»** دائماً لا صفة»؛ فنحن نقول «الله الغفور» ولا نقول «الغفور الله»، مما يجعله المحور الذي تترتب عليه كل كمالات الفعل الإلهي.

* **«أحَد»**

تدل على التفرد المطلق للذات الإلهية، ونفي كل شـــريك أو مثيل، وتعبر عن بســـاطتها وتنزيهها عن أي تركيب أو تجزئة. ويوضــح العَلّامة الطباطبائي في (تفسـير الميزان)، أن صــفة **«واحد»** تختلف عن صــفة «أحد» حيث أن **«واحد»** تشير إلى العدد أو النوع، أي أن الواحد يمكن أن يكون جزءًا من مجموعة.

بينما **«أحد»** تنفي التعدد في الذات الإلهية أو صفاتها أو أفعالها، فتدل على وحدة مطلقة لا تقبل الانقسام أو المشاركة. وبذلك، تُعد صفة **«أحد»** من الخصائص الفريدة لله تعالى، التي تبرز كماله الكامل المنفرد عن كل الموجودات. ومن الجدير بالذكر أن كلمة **«واحد»** في القرآن غالبًا ما تأتي مصـــحوبة بلفظ يوضـــح القدرة الإلهية المطلقة التي لا تقبل الثاني، كما في قوله تعالى:

﴿**أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**﴾ (يوسف:39).

الآية الثانية: ﴿ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ﴾ ﴿2﴾

* **«ٱلصَّمَدُ»**

يشير العَلّامة الطباطبائي إلى أن **«الصمد»** هو الكمال المطلق للذات الإلهية، الذي لا يحتاج إلى شيء في ذاته ولا في أفعاله، وهو الملاذ النهائي للعباد عند الحوائج والضـيق، والسـند المطلق في كل أمر. كما ينفي أي صفة مخلوقة عن الله سبحانه وتعالى، وينزه ذاته عن الحدود والجسمانية، مثل اللون، أو الرائحة أو المكان أو الحركة أو السـكون والكيفية. فالله تعالى منزّه عن كل ما يخص عالم المادة، فهو الكمال المطلق في ذاته وصفاته وأفعاله.

ومن هنا يظهر وجه دخول **«اللام»** في كلمة **«الصمد»** لتفيد الحصر، أي أنه تعالى وحده هو الصمد على الإطلاق. وبذلك، فإن الآيتان الأولى والثانية تصف الله سبحانه وتعالى من زاويتين متكاملتين:

﴿أَحَدٌ﴾ تصفه بأحدية الذات المقدسة وتنزيهها عن التركيب، و﴿ٱلصَّمَدُ﴾ تصفه بالكمال المطلق واستغنائه بذاته وانتهاء كل شيء إليه وهو من صفات الفعل. وتُعد هذه الآية معجزة علمية دقيقة لما تتضمنه من نفي صريح للجسمية والمادية عن الله تبارك وتعالى.

الآية الثالثة: ﴿لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ﴾ ﴿3﴾

تأتي هذه الآية بعد بيان صفة الصمدية لتؤكد بشكل مطلق نفياً لأي نوع من الولادة أو التولد لله عز وجل، سواء كان ماديًا أو لطيفًا.

* **﴿لَمۡ يَلِدِ﴾**

تنفي تمامًا أن يصدر عنه جلا وعلا أي شيء كثيف كالولد المألوف، أو لطيف كالروح أو النفس، كما تنفي جميع حالات الانفعال المرتبطة بالمخلوقات، مثل النوم، أو الغفلة، أو الحزن أو الفرح أو الرغبة أو الجوع، لأن الله سبحانه وتعالى منزّه عن خواص المادة وما يتفرع منها.

* **﴿وَلَمۡ يُولَدۡ﴾**

تنفي أن يكون مولودًا أو مخلوقًا من غيره، لأن الله أزلي أبدي، لا بداية له ولا نهاية، ولم يخرج من شيء كما تخرج الأشياء من عناصرها كالنبات من الأرض والدابة من الدابة والماء من الينابيع والسمع من الأذن. وترد هذه الآية على ادعاءات بعض الديانات، مثل زعم النصارى واليهود بأن المسيح أو عُزَيْر ابن الله، وأفكار مشركي العرب الذين اعتبروا الملائكة بنات الله، كما في قوله تعالى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ۖ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ ۚ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ (التوبة:30).

الآية الرابعة: ﴿وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ ﴿4﴾

ثم تبلغ الآية الأخيرة من هذه السورة ذروة البيان التوحيدي وغاية الكمال في أوصاف الله تعالى، حيث تنفي وجود أي مثيل أو نظير أو شبيه لله تعالى في ذاته أو صفاته أو أفعاله.

وفي دلالة كلمة ﴿**كُفُوًا**﴾

يشير العَلّامة الطباطبائي إلى أنها تعني المماثل في المقام والمنزلة والقدر؛ فالآية تحسم الأمر بنفي قاطع يوضح أن الله سبحانه لا يمكن أن يشبهه أو يضاهيه شيء في الوجود. وبذلك، تؤكد الآية على التوحيد الذاتي والصفاتي والأفعالي، وتنزّه الخالق عن كل نقص أو محدودية تفرزها الخواطر البشرية.

ويتعزز هذا البرهان العقلي بما أوصى به أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) ابنه الحسن (عليه السلام) بقوله: «**واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله وصفاته، ولكنه إله واحد كما وصف نفسه**».

كما يؤكّد القرآن الكريم هذا التلازم بين وحدانية الإله واستقامة النظام الوجودي في قوله تعالى:

﴿**لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَانَ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ**﴾ (الأنبياء:22).

تُبلور سورة الإخلاص جوهر العقيدة التوحيدية، وتؤسس لمعرفة يقينية تُميز بين صفات الله المطلقة والمفاهيم البشرية المحدودة؛ فهي ليست مجرد تقرير إيماني، بل بناء معرفي متكامل يُنزه الذات الإلهية عن الشرك والتشبيه. وكما ورد عن الإمام الصادق عليه السلام: «**إن التوحيد في سورة الإخلاص بمنزلة قلعة حصينة، من دخلها نجا وآمن**». ومن هنا، فإن أي انحراف عن هذا الإطار المعرفي يستدعي دراسة تحليلية ونقدية دقيقة.

الانحرافات الفكرية حول معرفة الله: عرض ونقد

إن مفهوم "معرفة الله" لم يكن يخلُ عبر التاريخ من الانحرافات، ســواء من بعض التيارات الدينية التي وقعت في التشبيه، أو الفلسفات المادية والإلحادية التي أنكرت الأصل. وقد بذل الفكر الإسلامي والفلسفي جهوداً منهجية لتصحيح هذه التصورات والعودة إلى "العقيدة التوحيدية الصحيحة" التي أرست معالمها سورة الإخلاص، مجسّداً حرص العلماء والمفكرين على أصالة المنهج التوحيدي.

أولًا: الشك في وجود الله – ونقده من داخل التجربة الإلحادية

يُعدّ إنكار وجود الله من أبرز الإشكالات التي تطرحها الفلسفات المادية المعاصرة، والتي ترى الكون نتيجة **«صدفة»** محضة دون خالق أو غاية. وقد تبلورت هذه الرؤية في كتابات فلاسفة مثل **برتراند راسل** في مقاله الشهير (لماذا لست مسيحيا؟)، حيث عبّر عن رفضه لفكرة الإله لادعاء غياب الأدلة العقلية. كما تبنى ريتشارد دوكينز هذا الطرح في كتابه (وهم الإله)، مصوراً الإيمان بالله على أنه «وهم نفسي موروث» لا يستند إلى دليل مادي تجريبي.

ثانياً: التحول الفكري المعاصر (نموذج أنتوني فلو)

واجهت هذه الأطروحات تحولات عميقة من داخل البيت الإلحادي نفسه، ولعل أبرزها تجربة الفيلسوف البريطاني أنتوني فلو، الذي قضى أكثر من نصف قرن مدافعاً عن الإلحاد قبل أن يعلن في أواخر حياته تحوّله إلى الإيمان بوجود **«خالق صانع»** للكون. وفي كتابه الشهير (هناك **إله: كيف غيّر أشهر ملاحدة العالم رأيه)**، برر تحوله قائلاً: «**إن التعقيد الذي يكاد لا يُصدّق في الترتيبات اللازمة لنشوء الحياة، يظهر أن هناك عقلاً خلاقاً لا بد أنه كان وراء ذلك**».

ويمثل هذا التحول صفعة قوية للمنهج المادي، إذ يثبت أن التأمل العقلي في «"**نظام الخلقة**» يقود بالضرورة إلى «**الواحد الأحد**». كذلك، يُعدّ يورام فان كلافيرن، السياسي الهولندي السابق، مثالاً معاصرًا بارزًا على التحول من الإلحاد والتشكيك إلى الإيمان.

شرع فان كلافيرن في تأليف كتاب كان يهدف فيه إلى مهاجمة الإسلام، لكنه أثناء البحث بدأ في قراءة القرآن من زاوية عقلية موضوعية، ليتفاجأ بمنطق متماسك وعقلانية فريدة في طرح التوحيد، مما قاده في نهاية المطاف إلى إعلان إسلامه عام 2019، قائلًا: «**إن الإسلام قدّم له بيتًا روحيًا منطقيًا**».

ولم تكن تجربة فان كلافيرن حالة منفردة؛ بل خاض أرنود فان دورن تجربة مشابهة انتهت بإيمانه بالإسلام. كما أشار الفيلسوف والعالم ألان تشالمرز في كتابه (ما هو الشيء المسمى علماً؟) إلى أن إنكار وجود خالق لا يستقيم مع مقتضيات العقل السليم، مؤكّدًا أن هذه التحولات الفكرية لم تكن مجرد اندفاعات عاطفية، بل هي نتائج عقلية نقدية انطلقت من مراجعة واعية وتفكيك دقيق للمفاهيم المادية السابقة.

ثالثًا: التشبيه والتجسيم – ونقده من داخل التراث الإسلامي

من الانحرافات التي ظهرت في فهم الصفات الإلهية: التشبيه والتجسيم. التشبيه هو الادعاء بأن الله يشبه خلقه في صفاته وأعضائه، أما التجسيم فهو الاعتقاد بأن لله جسمًا مركبًا من أعضاء. وقد فسّرت بعض الفرق آيات مثل: ﴿**الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى**﴾ أو ﴿**يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ**﴾ حرفيًا، فاعتقدوا أن لله يدًا ووجهًا وجسمًا كالمخلوقات. غير أن علماء المسلمين من أهل السنة والشيعة واجهوا هذه التصورات بعقلانية ونصوص واضحة، مؤكدين على مبدأ التنزيه في قوله تعالى:

﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ (الشورى:11).

وفي مدرسة أهل البيت، صرّح الشيخ الصدوق في كتابه (الاعتقادات) قائلاً: «**اعتقادنا في التوحيد: أن الله تعالى لا شبيه له، ولا نظير، وهو ليس بجسم ولا صورة، ولا يُدرك بالحواس**». كما أوضح أن بعض الألفاظ القرآنية التي قد تُفهم على ظاهرها تحمل معاني مجازية؛ فمثلًا: ﴿**خَلَقْتُ بِيَدَيَّ**﴾ بمعنى القدرة والقوة، و**﴿وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ﴾** أي الملك والسلطان.

وقد أيّد هذا المنهج العَلّامة الطباطبائي في تفسيره الميزان فقال: «**يداه" ليست حسيّة، بل هي تعبير مجازي عن كمال القدرة**». وعلى نفس السياق، يقول الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) في نهج البلاغة: «**لا تراه العيون بمشاهدة العيان، ولكن تُدركه القلوب بحقائق الإيمان**».

رابعًا: التشكيك في طرق معرفة الله – ونقده من خلال تجربة التصحيح

رغم وضوح الطرق التي أشار إليها القرآن الكريم لمعرفة الله تعالى – كالعقل، والفطرة، والوحي – إلا أن بعض الاتجاهات الفكرية الحديثة ترى أن معرفة الله تتم فقط من خلال تجربة شعورية داخلية، وهو ما يُعرف بـ «**النزعة الوجدانية**». وذهب آخرون إلى القول إن الحديث عن الله بوسائل عقلية أو لغوية ضرب من المستحيل، لأن اللغة عاجزة عن التعبير عن الخالق.

وقد تأثر بهذا الطرح فلاسفة مثل بول تيليش، الذي قال في كتابه (الشجاعة من أجل الكينونة): «**الله ليس كائنًا، بل أساس الكينونة**»، معتبرًا أن معرفته لا تتم عبر النص أو العقل، بل عبر القلق الوجودي والبحث الذاتي. غير أن هذا الاتجاه يفرّغ التوحيد من مضمونه الموضوعي، وقد ردّ عليه الشيخ محمد عبده قائلًا: «**العقل لا يخالف الدين، بل إن أوثق طرق الإيمان هو أن تؤمن بالله عن عقل واستدلال**».

كما كتب البروفيسور جيفري لانغ في كتابه (الصراع من أجل الاستسلام): «**لقد وجدت في القرآن حوارًا مع عقلي، لا قمعًا له، وكان ذلك ما أدهشني وجعلني أفتح قلبي لله**».

خامسًا: مشكلة الشر والظلم في العالم ونقدها عقديًا

يثير بعض المشككين شبهة قديمة بصياغة حديثة: إذا كان الله موجودًا ورحيماً، فلماذا يسمح بوقوع الشر والظلم والمعاناة؟

لكن هذا الطرح ينطوي على مغالطة فلسفية، إذ يتجاهل أن وجود الشر لا ينفي وجود الخالق، بل هو «اختبار مقصود» لإرادة الإنسان، التي هي محور التكليف. فالإنسان يعلم طريق الخير والشر، وكثير من صور الشر هي نتيجة لاستخدام الإنسان حريته في الاختيار. وقد بيّن القرآن هذه الحقيقة بوضوح في قوله تعالى:

﴿**وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ**﴾ (البلد: 10).

وقوله تبارك وتعالى:

﴿**لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا**﴾ (الملك:2)

(بمعنى أن يمتحنكم وكل بحسب حسن عمله).

وفي منطق الإيمان، كل ظلم مؤقت، وكل ظالم إلى زوال، والقصاص الحق لا يضيع، كما في قوله تعالى:

﴿**وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَار**﴾ (ابراهيم:42).

سادسًا: نموذج واقعي من الشك إلى اليقين

يُعد الدكتور والكاتب مصطفى محمود، نموذجًا واقعيًا يجسد رحلة الشك الفكري العميق وصولاً إلى اليقين. فقد مرّ في بداية حياته بفترة شك تبنى خلالها رؤية مادية، كما وصف في كتابه (حوار مع صديقي الملحد). لكنه توصل لاحقاً إلى أن الشر جزء من قانون الابتلاء وحرية الإرادة، وأن الله لا يخلق الشر المطلق، بل يخلق التوازن الذي يُمكّن الإنسان من الاختيار.

وقد لخص رحلته في كتابه (رحلتي من الشك إلى الإيمان)، مشددًا على أن الشر الظاهري هو في الحقيقة **«خير مستور»**، وأن الإيمان جاء نتيجة هذا الفهم الأعمق للعدالة الإلهية والاختبار الإنساني.

وهكذا، تُظهر هذه النماذج أن الشبهات حول وجود الله أو عدله تقوم على تصورات سطحية تفتقر للأساس المنطقي، وأن التأمل العقلي والتحليل المنهجي قادران على كشف ضعفها، مع تقديم رؤية معرفية متكاملة تجمع بين مقتضيات العقل ونقاء الروح، وتوازن بين الإيمان والتكليف، مؤسسًا علاقة واعية بين مفهومي العدالة والحرية.

سُبل المعرفة الإلهية وآثارها العملية

يتناول هذا القسم طرق معرفة الله من خلال العقل والفطرة والوحي، مع بيان دور الأسماء والصفات الإلهية في بناء الوعي الإيماني، وانعكاس هذه المعرفة على السلوك والرؤية الأخلاقية للإنسان .

طرق المعرفة الإلهية – مدخل إلى التوحيد

إن للعلم والمعرفة في العقيدة الاسـلامية مكانة سـامية ومنزلة رفيعة، وقد ورد في القرآن الكريم العديد من الآيات التي تحث الإنسان على طلب العلم وترسيخ المعرفة على أسس من العقل والفكر والإيمان. وقد كرّم الله العلم والعلماء ورفع منزلتهم، كما في قوله تعالى:

﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ (المجادلة: 11).

الفرق بين العلم والمعرفة

العلم – بمعناه اللغوي والمنهجي – هو عملية البحث والتحليل لاكتشاف الحقائق، بينما المعرفة هي ثمرة هذا الجهد العقلي وحصيلته. فالعلم أوسع نطاقًا، والمعرفة أكثر خصوصية وتركيزًا. ومع ذلك، إذا إقتصرت المعرفة على الجوانب المادية فقط، فقد تفقد غايتها الوجودية، بينما تكتسب عظمتها وسموّها حين تتعلق بخالق الكون ومصدر الوجود، فلا مرتبة أو شرف أعظم من ذلك.

وفي ضوء هذه المنزلة الرفيعة، سنبحث في أعظم المعارف التي يطرحها القرآن الكريم وهي **«معرفة الله»** التي تمثّل أصل الأصول في بنية العقيدة الإسلامية وغاية خلق الإنسان، إذ من أجلها صُيغت حياته الدينية والدنيوية، كما في قوله تعالى:

﴿**سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقّ**﴾ (فصلت: 53).

مفهوم معرفة الله وارتباطها بالتوحيد

تُثار في هذا السياق تساؤلات جوهرية: هل يمكن للعبادة أن تتشكل دون معرفة؟ وماهو المقصود بـ"معرفة الله"؟ وما علاقتها بعقيدة التوحيد؟

للإجابة على هذه التساؤلات، نستند إلى مقطع بليغ من كلام أمير المؤمنين **الإمام علي بن أبي طالب** (عليه السلام)، في (نهج البلاغة) حيث قال: «**أوّلُ الدِّينِ مَعرِفَتُهُ، وكمالُ مَعرِفَتِهِ التَّصديقُ بِهِ، وكمالُ التَّصديقِ بِهِ توحيدُهُ، وكمالُ توحيدِهِ الإخلاصُ لَهُ**».

وحينما نتأمل في مقولة الإمام عليه السلام، ندرك أن مراحل المعرفة التوحيدية للدين تنطلق من رحلة بدايتها المعرفة، ثم التصديق والتوحيد الخالص لله تبارك وتعالى، وتنتهي بالتفاني المطلق في إخلاص العبودية له. ولكن يجب التنويه هنا، أنه ليس المراد من المعرفة الإلهية الإحاطة بالذات الإلهية المقدسة أو كُنهها، لأن الحقيقة الإلهية لا يمكن إدراك حقيقتها أبدا، كما في قوله تعالى:

﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾ (طه: 110).

إنما المراد من المعرفة، تلك التي تسمو بالإنسان إلى مقام التوحيد والإيمان والتحرر من كل تبعية واليقين بأن الله هو الخالق الأحد، المتفرد في ملكه. وكما ورد في الحديث النبوي: «**أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك**».

ويؤكد هذا المعنى ما رواه الإمام الصادق (عليه السلام) عن الإمام الحسين (عليه السلام)، حيث قال: «**أيها الناس، إن الله جلّ ذكره ما خلق العباد إلا ليعرفوه، فإذا عرفوه عبدوه، وإذا عبدوه استغنوا بعبادته عن عبادة من سواه**».

وقد اهتم علماء الإسلام بتصنيف مراتب هذه المعرفة، وتحديد مصادرها ومجالاتها. فالمتكلمون – مثل الغزالي والجويني – اعتبروها ضرورة عقلية وفطرية، تنشأ من التأمل في نظام الكون، وتؤدي إلى التصديق بوجود واجب الوجود وصفاته. أما الفلاسفة – كابن سينا والفارابي – فرأوا أن معرفة الله تمثّل ذروة المعرفة البشرية، لأنها تتعلّق بأشرف موجود. ومن هنا وجب علينا التعرف على مفاتيح هذه المعرفة ومحكمات آياتها.

الصلة بين الآيات المحكمات والتوحيد

تعدّ معرفة الأســـس التي تقوم عليها المعرفة الإلهية من أهم مفاتيح التوحيد، وقد تكفّل القرآن الكريم ببيان هذه الأسس بوضوح، فلم يترك الإنسان في حيرة من أمره، بل عرّفها بـــ **«الآيات المحكمات»**، ووصفها بأنها "**أمّ الكتاب**" بصـــيغة المفرد لا الجمع، في إشـــارة دقيقة إلى أن جميعها تعود في حقيقتها إلى أصـــل واحد هو "**التوحيد**"، ومنه تتفرع سائر المعارف القرآنية. وفي ذلك قوله تعالى:

﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ (آل عمران: 7).

وتكمن أهمية هذه الآيات في كونها المرجع الأساس في فهم القرآن الكريم، إذ لا يُفهم المتشابه فهماً صحيحاً إلا بالرجوع إلى المحكم، وإهمال هذا الميزان المنهجي يفضـي إلى الانحراف العقائدي والفقهي والأخلاقي، كما وقع لمن أخذوا المتشابهات على ظاهرها، فوقعوا في التشبيه والتجسيم.

ومن هنا، كان أول أركان معرفة الله هو تنزيهه ســبحانه عن الشــبيه والمثيل، وتوحيده في الذات والصـــفات والأفعال؛ فالخالق لا يُقاس بالمخلوق، وإذا شُبّه به وقع الإنسان في ضـلال التشبيه، وإذا نُسب إليه الشريك وقع في الشرك، وكلاهما مرفوض عقلاً وشرعاً. فالله جلّ جلاله سرمديّ الوجود، أزليّ لا بداية له، وأبديّ لا نهاية لوجوده، لا يسبقه عدم ولا يلحقه فناء.

وقد عبّر النبي (صـلى الله عليه وآله وسلم) عن هذا التنزيه بأبلغ بيان في دعائه في الركوع والسجود، حيث كان يقول: «**سُــبُّوحٌ قُدُّوسٌ، رَبُّ الْمَلَائِكَةِ وَالرُّوحِ**»؛ فـــــ(سُــبّوح) تدل على التنزيه المطلق عن كل نقص، و(قُدّوس) تشير إلى الطهارة الكاملة عن الشريك والمثيل.

وقد لخّص العَلّامة السـيد محمد حسـين الطباطبائي هذا المعنى في (تفسـير الميزان) بقوله: «**إن المحكمات هي الآيات التي تُبيّن حقيقة التوحيد، لأنها واضـحة الدلالة لا يدخلها لبس، وكل ما عداها من المتشـابه يُردّ إليها، فالتوحيد هو الأصل الذي ترجع إليه جميع المعارف القرآنية**».

ويؤكد الفخر الرازي هذا المنهج في (تفسـيره الكبير)، حيث يرى أن المحكمات هي: «**الأصـول التي يُرجع إليها عند التباس المعنى، وهي التي تنفي التجسيم والتشبيه عن الخالق، وتدل على تنزيه المطلق**».

طرق معرفة الله – بوابة التوحيد

تتعدد السبل التي تقود الإنسان إلى معرفة الله، ويمكن تصنيفها في ثلاثة مستويات متكاملة: الطريق الفطري الكامن في الإنسان، والطريق العقلي والكوني الذي يكشف عن آثار قدرة الله في النظام الشامل للكون، وطريق الأنبياء والرسل الذين نقلوا الوحي الإلهي إلى البشرية. وهذه الطرق، على تنوعها، لا تتعارض فيما بينها، بل تتكامل لتشكّل مسارًا معرفيًا واحدًا يقود إلى التوحيد.

ومع ذلك، تبقى أسـمى مراتب المعرفة هي تلك التي تتجلى في أسـماء الله وصـفاته وأفعاله، لما تحمله هذه التجليات من دلائل على عظمة الخالق وكماله، إذ تجمع بين الإدراك العقلي والوعي الروحي في تناسـق متكامل، تحوّل الإيمان من مجرد تصديق نظري إلى وعي توحيدي حيّ ينعكس على الفكر والسلوك.

الفطرة: دليل إلى معرفة الله

يُعدّ الطريق الفطري السبيل الأقرب والأشمل للإنسان نحو معرفة الله. وقد فسّر العلامة السيد كمال الحيدري «**الفطرة**» بأنها المعرفة التي أودعها الله في بنيان الإنسان، فلا تزول ولا تنفصل عن أصل خلقته؛ فهي ليست معرفةً مكتسبة أو حصـولية، بل «**معرفة حضـورية وجودية**» تُخلق مع الإنسـان وتنمو بتكامله. وقد أشـار القرآن الكريم إلى هذه الحقيقة في قوله تعالى:

﴿**فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ**﴾ (الروم: 30).

ومع تداخل عوامل التربية والنشـأة، والمفاهيم الثقافية والاجتماعية والدينية المختلفة، قد تتعرض الفطرة لما يُغشّي نورها، رغم بقائها كامنة في أعماق النفس

وقد عبّر الحديث الشريف عن هذه الحقيقة بوضوح، إذ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم):

«كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه أو ينصّرانه أو يُمجّسانِه».

ولا يقتصر حجاب الفطرة اعلى العوامل الخارجية فحسب، بل إن الشهوات والغفلة تسهم أيضًا في طمس نورها، مما يستدعي صقلًا روحيًا وتجديدًا داخليًا يزيل ما تراكم على القلب من غشاوة، ويعيد للفطرة صفاءها الأول، كما في قوله تعالى:

﴿**كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ**﴾ (المطففين: 14).

وقد عبّر العالم الفيزيائي ألبرت أينشتاين عن هذا الإحساس الفطري العميق بقوله: «**أجمل وأعمق المشاعر التي يمكننا تجربتها هي الشعور بالغموض بوجود قوة أعظم تقف خلف هذا الكون... فهي نواة كل دين حقيقي**».

وبذلك تبقى الفطرة، رغم صدقها وصفائها، بحاجة إلى من يصونها ويحفظ نقاءها، لتظل منفتحة على نور الهداية، ومقترنة بالعقل والحق، فلا تنطمس تحت ركام الغفلة ولا تتشوّه بالتلقين الخاطئ. فهي إحدى وسائل معرفة الله الأساسية، متى بقيت سليمة، قادت الإنسان بطبيعتها إلى توحيد الخالق.

العقل والكون: طريق إلى معرفة الله وتوحيده

أولًا: الاستدلال العقلي والكوني في القرآن

من أعظم نعم الله على الإنسان نعمة العقل، فهو شرط من شروط التكليف، وقد حث الله عباده في آيات عديدة على التفكر والتدبر في آيات الكون لاستكشاف حقيقة الوجود ونبذ التقليد والجمود، كما في قوله سبحانه:

﴿**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾ (الغاشية: 17).

وقوله سبحانه:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ، لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: 190).

ويقوم الطريق العقلي على **«مبدأ السببية»**، أي أنّ لكل معلول علّة، ولكل أثر سبب، ولا يمكن لوجود أي شيء أن يكون بلا سبب. وقد أوضح القرآن الكريم هذا المعنى بأسلوب استنكاري تحقيقي، يوجّه العقل للتفكر والتأمل في وجود الكون واكتشاف ضرورة وجود خالق حكيم خلفه، كما في قوله تعالى:

﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور: 35).

ثانيًا: آراء علماء الدين والفلاسفة المسلمين

لخّص الفيلسوف **ابن رشد** هذا المعنى بقوله: **«الآيات الكونية في القرآن حجج على الخالق لا تزول»**، مؤكدًا أن النظر في الخلق هو سبيل مشروع لمعرفة الله. وأشار الإمام والفقيه **الغزالي** إلى وظيفة العقل بقوله: **«العقل هو المصباح الذي أنار الله به طريق الهداية لعباده، فمن أطفأه ضلَّ، ومن استضاء به اهتدى»**.

كما اعتبر العَلّامة الطباطبائي في (تفسير الميزان) أن تدبر النظام الكوني يُفضي بالضرورة إلى الإيمان بالله، وبيّن الإمام فخر الدين الرازي أن انتظام الكون وتناسقه يدلّ على حكمة منظّمه. وأكد العلامة السيد كمال الحيدري أن الاستدلال من "**الأثر إلى المؤثر**" يُعدّ من أوسع الطرق وأكثرها انسجامًا مع الفطرة، إذ يعكس تفاعل الوجدان مع قوانين الوجود.

ثالثًا: رؤية العلماء والفلاسفة المعاصرين

لم يقتصر هذا المنهج على علماء المسلمين والفلاسفة، بل امتد ليشمل علماء ومعاصرين. فقد أشار عالم الأجنة الكندي كيث مور إلى أن دقة وصف القرآن لتطور الجنين تسبق العلم الحديث بقرون، مؤكداً استحالة صدوره عن مصدر بشري.

ودعا العالم والرياضـــــي جون لينوكس إلى قراءة قوانين الكون كدليل على عقل خالق، فقال: **«كلما ازداد علمي بالرياضيات والفيزياء، ازداد يقيني بوجود عقل عظيم يقف وراء هذا الكون».**

وأعرب الفيزيائي البريطاني فريد هويل عن دهشـته من انسـجام قوانين الطبيعة ضـرب مثل شـهير قائلًا: **«من العبث أن نتصـور أن الحياة ظهرت صـدفة، كمن يظن أن إعصـارًا مرّ في سـاحة خردة فنتجت عنه طائرة بوينغ 747».**

كما لاحظ روجر بنروز أن الاحتمالات الدقيقة لظهور الكون بصـورته الحالية شـبه مسـتحيلة عشـوائياً، مما يوحي بوجود "**تصميم ذكي**" يقف خلف هذا البناء الدقيق.

وأكد الفيلسـوف رينيه جينو (عبد الواحد يحيى)، الذي تحول إلى الإسـلام، أن العقل حين يتحرر من ضــغط الماديات، يفتح نوافذ نحو الحقيقة الإلهية. وكتب أسـتاذ الرياضـيات جيفري لانغ في كتابه (الصـراع من أجل الاستسلام) الذي أسلم، أن القرآن خاطب عقله وقلبه في آن واحد باعتباره منظومة برهانية ووجدانية متكاملة.

إنّ هذا الطريق المزدوج – العقلي والكوني – ليس حكرًا على العلماء أو الفلاســـفة، بل هو مفتاح لكل من يُعمل عقله ويتأمل بإخلاص في "الأنفس والآفاق"، ليكون دليلاً إلى معرفة الحق تبارك وتعالى والتصـــديق والإيمان بالله الواحد الأحد.

الأنبياء والرسل: الطريق العملي إلى معرفة الله وتوحيده

مع أنّ العقل أداة أسـاسـية في إدراك الحقائق، فإن التأمل النظري وحده لا يكفي لارتقاء الإنسـان إلى المعرفة الإلهية. ومن هنا، جاء دور الأنبياء والرسل، إذ جُعلوا وسائط للفَيض الإلهي، مبشرين ومنذرين يدعون الناس لعبادة الله الواحد الأحد ونبذ عبادة ما سـواه، ليقيموا الحجة عليهم فلا يسـتطيعون إنكار الحق بعد أن عرفوه. كما في قوله تعالى:

﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ**﴾ (النحل: 36).

ولم يقف دورهم عند التبليغ، بل كانوا نماذج حية يُقتدى بها، فجسّـــدوا المعرفة الإلهية في الإيمان والعمل والســـلوك والأخلاق. ويعرض القرآن الكريم مشـــاهد عديدة تحمل هذا البعد المعرفي والعملي، ومنها مناظرة **«النبي إبراهيم»** (عليه الســـلام) مع الملك نمرود لإقامة البرهان العقلي على بطلان كفره واســـتكباره (البقرة: 258).

ومواجهة **«النبي موســى»** (عليه الســلام) لفرعون، إذ أُيِّد بالمعجزات والحكمة، فكان الهدف الأسـمى توجيه شـــعبه نحو عبادة الله الواحد الأحد وتثبيت التوحيد في نفوســـهم، وكانت الحرية من عبادة الطاغوت نتيجة طبيعية لهذا التوحيد، لا الغاية بحد ذاتها. كما يظهر الحكمة والعدل في قصـــــة **«النبيين داود وســـــليمان»** (عليهما السلام) عند الفصل في قضية الغنم والزرع (الأنبياء: 78–79).

ويبلغ هذا النموذج الإنساني ذروته في شخصية خاتم الأنبياء نبينا **محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)**، الذي منحه الله أكمل مراتب الخلق العظيم والرحمة، فكان الأسـوة الحسـنة للمؤمنين في أقواله وأفعاله وأحواله، كما قال تعالى:

﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا** ﴾(الأحزاب: 21)

وقوله سبحانه

﴿وَإِنَّكَ **لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم: 4)

ويُبيّن العَلّامة الطباطبائي أن الغاية من نزول الوحي هي هداية البشـــر إلى ربهم، إذ أن الرســـل جُعلوا حملة هذا الكتاب المبين، نورًا يهدي العقول، وسبيلًا يضيء القلوب إلى درب التوحيد.

أهل البيت (عليهم السلام): طريق إلى معرفة الله وتوحيده

كما أنّ خاتم الأنبياء (صلى الله عليه وآله وسلم) هو نور الهداية الذي أضاء بنوره سبل الحق في ظلمات الجهل، فإنّ أهل بيته الطاهرين والأئمة المعصومين (عليهم السلام) يمثلون الامتداد الأصيل للرسالة النبوية، وحلقة الوصل بين الوحي الإلهي والتطبيق الإنساني الواعي.

فقد شكّلوا نموذجاً متكاملاً، ومعياراً عملياً لفهم التعاليم الإلهية وتجسيدها في الواقع، فكانوا طريقاً واضحاً لمعرفة الله وتوحيده. ويُقصد بأهل البيت (عليهم السلام): النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)، وعلي بن أبي طالب، وفاطمة الزهراء، والحسن، والحسين، ومن نسلهم الأئمة الاثنا عشر، وصولاً إلى الإمام المهدي (عجل الله فرجه الشريف).

أولاً: المنهج العلمي والعقلي (نهج البلاغة)

يتجلّى المنهج العلمي لأهل البيت (عليهم السلام) في تراثهم الفكري، ويبرز بصورة خاصة في (نهج البلاغة)، الذي يُعد من أعمق النصوص الإسلامية في عرض المعارف الإلهية والإنسانية. فقد كشف **الإمام علي (عليه السلام)** من خلال خطبه وكلماته عن حقائق التوحيد، وأسس التفكير العقلي السليم، وربط بين الإيمان والعقل، وبين العقيدة والحكمة العملية.

ويضم الكتاب موضوعات متعددة تشمل التوحيد، والعقائد، والأخلاق، والسياسة، والإدارة، والقضاء، بما يقدّم رؤية شاملة للإنسان والمجتمع في ضوء الإيمان بالله. وقد شكّل هذا المنهج مصدر إلهام لكثير من الفلاسفة والمتكلمين المسلمين في بناء براهينهم العقلية المتعلقة بتوحيد الذات الإلهية وصفاتها.

ثانياً: المنهج المعرفي والوجداني (الصحيفة السجادية)

ويظهر المنهج المعرفي لأهل البيت (عليهم السلام) بوضوح أيضاً من خلال أدعيتهم، ولاسيما (الصحيفة السجادية، وهي مجموعة من الأدعية والمناجيات المروية عن الإمام زين العابدين (عليه السلام)، والتي نُقلت عبر أبنائه وتلامذته المقرّبين.

وتمثل هذه الأدعية مدرسة معرفية متكاملة، إذ تتضمن معارف عميقة في التوحيد، والكون، والإنسان، وعالم الغيب، ومقامات الأنبياء، إلى جانب الإرشاد الأخلاقي والاجتماعي. وبذلك لا يكون الدعاء مجرد تضرّع وجداني، بل وسيلة لترسيخ معرفة الله، وبناء الوعي الروحي المتوازن، وفتح آفاق الرجاء برحمة الله الواسعة.

وقد لفتت (الصحيفة السجادية) أنظار عدد من المفكرين والباحثين، فشبّهها المفكر المصري محمد زكي مبارك في كتابه (التصوف الإسلامي والأدب والأخلاق) بـــ «الإنجيل» من حيث عمقها الروحي، واعتبر مناجاتها فيضاً إلهياً جرى على لسان الإمام زين العابدين (عليه السلام).

كما وصفها الطنطاوي الجوهري، صاحب (الجواهر في تفسير القرآن)، بأنها: **«فوق كلام المخلوق ودون كلام الخالق»**. ويرى الباحث الأمريكي ويليام تشيتيك أن الصحيفة تقدم للعقل الغربي صورة إنسانية وعميقة عن الإسلام، تتجاوز الصور النمطية السطحية.

ثالثاً: المنهج العملي والشهودي (ثورة الإمام الحسين عليه السلام)

أما المنهج العملي لأهل البيت (عليهم السلام)، فيبلغ ذروته في سيرة الإمام الحسين (عليه السلام)، ولاسيما في نهضته بكربلاء، حيث جسّد التوحيد في أعلى صوره العملية، حين قدّم نفسه وأهل بيته وأصحابه دفاعاً عن الحق، وحفاظاً على جوهر الإسلام المحمدي الأصيل، قائلاً: **«إني لم أخرج أَشِراً ولا بَطِراً، وإنما خرجت لطلب الإصلاح في أمة جدي»**.

لقد كانت ثورته تعبيراً عن عبودية خالصة لله، ورفضاً قاطعاً للانحراف عن خط التوحيد، وتجسيداً عملياً لانتصار الحق الإلهي على الطغيان القائم على القوة والهيمنة، ونموذجاً خالداً لانتصار القيم الإلهية على القهر المادي.

وقد استوقفت شخصية الإمام الحسين (عليه السلام) عدداً من المفكرين الغربيين، فعبّر الأديب الإيرلندي جورج برنارد شو عن إعجابه بموقفه، واعتبره رمزاً إنسانياً للوقوف بوجه الظلم. وأشار المستشرق الألماني كارل بروكلمان إلى أن استشهاده أسهم في تعميق الوعي الديني في التاريخ الإسلامي.

كما رأى المؤرخ الأمريكي واشنطن إيرفينغ أن تضحية الإمام الحسين كانت من أجل إنقاذ روح الإسلام، بينما وصفت المؤرخة البريطانية فريا ستارك أثره بأنه يمسّ جوهر الضمير الإنساني. وأشاد الشاعر الألماني غوته بمأساته، معتبراً إياها مأساة إنسانية كبرى جسّدت الدفاع عن القيم الأخلاقية الرفيعة.

تكامل مسارات المعرفة

وبذلك يتكامل منهج أهل البيت (عليهم السلام) بين التعليم النظري، والبرهان العقلي، والتجربة العملية، فيقود الإنسان إلى توحيد حيّ يقوم على المعرفة والوعي والسلوك. وبهذا تكتمل مسارات معرفة الله، فتتآزر الفطرة والعقل والوحي والتطبيق العملي، ليصل الإنسان إلى إيمان راسخ يجمع بين الحقيقة النظرية والالتزام الأخلاقي.

طرق معرفة الله من خلال أسمائه وصفاته وأفعاله الإلهية

إنّ العلم والتفقه بأسماء الله وصفاته وأفعاله يُعدّ من أشرف العلوم وأجلها على الإطلاق، لأن شرف العلم إنما يكون بشـــرف المعلوم، والمعلوم في هذا العلم هو الله ســـبحانه وتعالى. فقد خلق الله الخلق ليعرفوه ويعبدوه، وجعل هذه المعرفة مفتاحاً للعبادة، وأساساً للتقوى والدعاء.

ولهذا يؤكد العَلّامة الطباطبائي أن معرفة الصـفات الإلهية هي المدخل الضـروري لتحقيق التوحيد العملي، إذ لا يمكن للإنسـان أن يُحسـن العبودية إلا بعد أن يُحسـن معرفة المعبود. وينطلق هذا الفهم من ضـرورة إدراك الصـفات الإلهية ضـمن إطار «**التنزيه المطلق**»، بعيداً عن الرؤى التي قد تفضـي إلى محاذير التجسـيم أو التشـبيه. وبهذا المنهج تُصـان عقيدة التوحيد من الشـوائب الكلامية والفلسـفية، مع بقائها متجذّرة في أصـولها القرآنية والعقلية.

ولا يقتصر أثر هذا المنهج على الإطار الإيماني الداخلي، بل يتجاوز ذلك إلى بعض المفكرين الغربيين الذين وجدوا في هذا التصـــور التوحيدي إجابات لأسـئلتهم العقلية والوجودية. ومن هؤلاء البروفيســور جيفري لانغ، أستاذ الرياضيات الأمريكي، الذي عبّر في كتابه (الصراع من أجل الاستسلام) بقوله: «**لقد وجدت في القرآن حواراً مع عقلي لا قمعاً له، ووجدت في أســـمائه وصـــفاته إجابات لأســـئلتي، وحضـــوراً يلامس أعماق وجودي**».

كما تشير الباحثة الفرنسية فرانسواز شيفالييه إلى أن تأملها في معاني أسماء الله قادها إلى تصور لإله عادل عليم منزّه عن مشـابهة البشـر، قائلة: «"**كنت أبحث عن صـورة لإله عادل، عليم، قريب، لا يشـبه البشـر، فوجدته في أسماء الله التسعة والتسعين ووجدت معها طمأنينة افتقدتها في كل تجاربي السابقة**».

ومن منطلق أهمية هذا الباب، ومع التسليم بأن الإحاطة بكنه الذات الإلهية متعذرة على العقول، سنحاول في هذا الفصل، بقدر ما أُوتينا من معرفة، تناول القواعد المنهجية لفهم تجليات الأسماء والصفات الإلهية، وما تكشفه من بعض عظمة الله وقدرته وصلتها الوثيقة بالتوحيد، دون الدخول في شرح تفصيلي لكل اسم على حدة، لما يتطلبه ذلك من دراسة مستقلة تليق بجلال هذه الأسماء وعظيم شأنها.

حدود المعرفة الإلهية ومنهج التنزيه: تعذر إدراك الذات المقدسة

إن للمعرفة الإلهية حدوداً يقف عندها العقل والنقل، فالإحاطة بحقيقة الله والوقوف على كنه ذاته المقدسة أمر محال على جميع الخلائق، إذ إنه سبحانه مطلق الوجود لا يحدّه شيء. ولهذا، فإن السبيل الممكن لمعرفته هو من خلال ما تجلّى من آثاره في الخلق، وما دلّت عليه من آيات عظمته وحكمته وقدرته، ومظاهر أسمائه وصفاته. وقد أيّد القرآن الكريم هذا التنزيه المطلق للذات الإلهية في قوله تعالى:

﴿**لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ**﴾ (الأنعام: 103).

وقوله سبحانه:

﴿**وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا**﴾ (طه: 110).

وهذا الإقرار بعدم القدرة على الإدراك البصري أو العقلي لا يعني نفي المعرفة كلياً، بل يُعدّ ترقية لها عبر حقيقة الإيمان القلبي، فقد سُئل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام): **«هل رأيت ربّك»؟ فقال: "وكيف أعبد ربّاً لم أره، لم تره العيون بمشاهدة العيان، ولكن رأته القلوب بحقائق الإيمان».**

وفي هذا السياق، يؤكد الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه (إحياء علوم الدين) أنَّ: **«المعرفة بالله هي إدراك ما أخبر الله به عن نفسه، وليس إدراك الذات الإلهية التي لا يُدركها البصر ولا العقل».**

وهو ما يوافقه فيه منهج العَلّامة الطباطبائي في (تفسـير الميزان)، حيث يشـدد على أن إدراك الذات الإلهية من دون وسائط أمر غير ممكن، قائلاً: «**الذات الإلهية منزهة عن أن تُدرك بالحواس أو أن تُحدّ بحد، وإنما يُعرف سبحانه بصفاته وأفعاله، فهي سبيل العقل إلى معرفته، وما عدا ذلك مغلق على العقول**».

ومن هذا المنطلق، ينبثق الدور المركزي للأسـماء الحسـنى، بوصـفها الوسـيلة التي يتعرّف بها العقل على بعض صـفات الله وأفعاله، ويتوجه بها إليه في العبادة والمعرفة، مع بقاء الذات الإلهية منزّهة عن الإحاطة والإدراك.

أسماء الله الحسنى: سمات في معرفة الله وتوحيده

تُعدّ الأسماء والصفات الإلهية الوسيلة التي أنعم الله بها على عباده، لتكون مظاهر يُمكن للإنسان من خلالها التعرف على بعض من كمالات ربه، والتقرب إليه بالدعاء والذكر، والتسـبيح، والتكبير، والتعظيم. وقد بيّن العَلّامة الطباطبائي هذا المعنى في (تفسـير الميزان)، مؤكّداً أن الأسـماء الحسـنى تمثّل الطريق المشـروع لمعرفة الله، حيث يقول:

«الأسـماء الحسـنى هي الصـفات العليا التي تُعرف بها الذات الإلهية، وهي التي بموجبها يتوجه العبد إلى الله في العبادة والدعاء، ولو لم يجعل الله هذه الأسـماء لصـعب على العباد معرفة الله حق المعرفة، لأن الذات الإلهية مطلقة ولا يمكن تصورها إلا من خلال هذه الصفات» .

المحور الأول: حقيقة الاسم والصفة في الرؤية التوحيدية

في البداية، لا بد من تحرير المراد من «**الاسـم الإلهي**»؛ وهو أن يتوجّه العبد إلى الذات الإلهية بالدعاء والعبادة بلحاظ صفة من صفاتها الكمالية. وبتعبير العلامة السيد كمال الحيدري، فإن الاسم الإلهي هو: «**ما يشير إلى الذات الإلهية بلحاظ كمالاتها وصفاتها**».

أمّا **الصفة**، فهي تجلٍّ لجانب معيّن من كمال الذات الإلهية، تكشف عن مظهر من مظاهر عظمته وكماله، من دون أن تعني تعدّداً في الذات أو انفصالاً عنها. فصفات مثل: «العليم»، و«السميع»، و«الرؤوف»، و«الرزّاق»، و«المنعم»، جميعها تشير إلى حقيقة واحدة هي الله سبحانه وتعالى، غير أنّ العبد يتوسّل بالاسم الذي يناسب حاجته ومقامه.

فقولنا: «**الله الغفور**» يعني توجّه العبد إلى الذات الإلهية من خلال تجلّي صفة المغفرة، كما في قوله تعالى:

﴿**وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ (طه: 82).

المحور الثاني: اسم الجلالة (الله)؛ الاسم الجامع والخصائص المتفردة

يرى السيد كمال الحيدري أن الاسم الأعظم هو – «**الله**» – لجميع أسماء الله الحسنى، والمحيط بها، حيث تكمن القوة والفضل في الحقيقة العميقة التي يحملها الاسم، لا في لفظه وحده. ويقول العلامة الطباطبائي في (تفسيره الميزان):

«الاسم الأعظم هو الاسم الذي يجتمع فيه جميع الأسماء الحسنى، وبه تتميز ذات الله تعالى عن جميع المخلوقات، وهو الذي إذا دُعي به أجاب، وإذا استُعِين به قُضي، لأنه يحتوي على كلّ ما يدل على عظمة الله وكماله».

ومن خصائص هذا الاسم أنه «**اسم الجلالة**»، ويختص به سبحانه، ويعني الذات الجامعة لكل الأوصاف الكمالية، والخالية من كل عيب ونقص، فلا يطلق على غيره ولا يُوصف به أحد، ولا يُنسب إلى غيره، كما في قوله تعالى:

﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ**﴾ (الإسراء: 110).

كما أنه لا يقع وصـــــفاً لاســـــم آخر، بل هو الموصـــــوف، فنقول: (الله الرزاق، الله المحيي، الله العالم، الله القدير...)؛ فكلما تعرّف العبد على اسم أو صفة، انكشف له جانب من تجليات **«هُوَ»**، مما يدل على وحدة الذات الإلهية رغم تعدد مظاهرها وتجلياتها. وبهذا يكون اســـم الجلالة هو القطب الذي تدور حوله ســـائر الأسماء، والمآل الذي ترجع إليه كل الصفات.

المحور الثالث: دلالة «الحسنى» في الأسماء الإلهية

في اللغة العربية، تُعدّ كلمة **«الحسنى»** صيغة التفضيل المؤنثة من **«الأحسن»**، وتُستعمل للدلالة على الكمال المطلق والجمال البالغ. فكل ما يُنسب إلى الله من الصفات هو **«الأحسن»** في ذاته المقدسة، أي الكمال الذي لا يعتريه نقص؛ كما في قوله تعالى:

﴿**أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ**﴾ (التين: 8).

وقوله سبحانه:

﴿**وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ**﴾ (يوسف: 64).

حيث تُظهر المبالغة في كمال الحكم والرحمة بما يفوق كل ما ســـواهما، وهو ما يعكس الكمال المطلق لله ســبحانه وتعالى. وبعد أن بيّنّا المعنى اللغوي لصــيغة التفضــيل **«الحســنى»**، ننتقل إلى الدلالة العقدية لهذه الصفة في القرآن الكريم؛ فقد بيّن مفسرو العامة والخاصة أن آية:

﴿**وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ (الأعراف: 180).

تدلّ على اختصاص هذه الأسماء بالله تعالى على وجه الحصر، إذ يشير تقديم الجار والمجرور **«لِلَّهِ»** إلى التخصــيص، بينما يفيد الجمع في كلمة «أســماء» العموم والشــمول لكل الأســماء التي بلغت درجة الحســن المطلق.

وفي هذا الصدد، يرى العلامة السيد الطباطبائي في (تفسيره الميزان) أنّ المراد من هذه الآية: **«أنَّ كل اسم هو أحسن في الوجود فهو مختص بالله، ولا يشاركه فيه أحد».**

وهذا لا ينافي أن يفيض الله بعض آثار صفاته، مثل العلم والرحمة، لغيره على سبيل التبع والإفاضة؛ إذ تبقى الحقيقة الذاتية لهذه الصفات وكمالها المطلق لله وحده، بينما يكون ما يناله غيره مجرد انعكاس أو فيضٍ إلهي، فالمخلوق يتصف بالصفة بفقره وحاجته، بينما يتصف بها الخالق بغناه ووجوبه الذاتي.

الأسماء الحسنى: محور معرفي في توحيد الله

لقد أكّد العديد من المفسّرين والعلماء على الدور المعرفي للأسماء الحسنى وعلاقتها ببيان حقيقة التوحيد الذاتي (الذي يتضمن أن **الله أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)**، والتوحيد الصفاتي لما تجسده هذه الأسماء من معانٍ توحيدية في الصفات، والتوحيد الأفعالي لما يترتب عليها من آثار في الأفعال الإلهية. هذا التقسيم الثلاثي للتوحيد (الذاتي، الصفاتي، الأفعالي) يشكّل الأساس المنهجي الذي اعتمده متكلمو الشيعة الإمامية، وهو ما تتبعه مرجعية هذا البحث في تحليل بنية العقيدة.

وقد عبّر السيد كمال الحيدري عن أهمية هذه المعرفة التوحيدية بقوله: **«إنها من أنقى المنافذ التي يصل بها العبد إلى معرفة ربّه، إذ إنها تحمل في طياتها صورة حية عن صفات الله، وتُنير دروب التوحيد والعمل الصالح».**

أما السيد الطباطبائي، فقد بين في (تفسيره الميزان) أثر هذه المعرفة الإلهية في فهم الصفات الإلهية وتوحيد الخالق وتجلياتها في الكون، موضحاً أن:

«الأسماء الحسنى هي الصفات العليا التي تعرف بها ذاته المقدسة، وهي التي يترتب عليها آثار الألوهية من الخلق والرزق والتدبير والمغفرة والهداية وغير ذلك. والدعاء بها هو التوجّه إلى الله من حيث تلك الصفات، وهي من أفضل وسائل المعرفة بالله والتقرّب إليه، لأنها تُظهر صفاته التي يتعلّق بها العبد في عبادته وتوحيده».

وفي هذا السياق، تؤكد هذه الأسماء على صفات الكمال وتنزيه الخالق عن عوارض المادة وعن كل نقص أو حاجة. وقد أشار بعض أهل المعرفة إلى أن:

«كلّ ما يشاهده الإنسان من صفات النقص والحاجة، فالله تعالى منزّه عنها، متّصف بما يقابلها من صفات الكمال. فمشاهدة الجهل تدلّ على علمه، ومشاهدة العجز تدلّ على قدرته. غير أن علمه ليس كعلمنا، وقدرته ليست كقدرتنا، بل هو يعلم الأشياء بحضورها لديه، ويُوجد الأشياء بلا واسطة مادية كما نفعل نحن».

هذا التنزيه المطلق يتوافق مع القاعدة الفلسفية القائلة: «**بسيطُ الحقيقة كلُّ الأشياء، وليس بشيء منها**»، أي أن الله هو أصل كل وجود وجامع لكل صفات الكمال المطلق دون أن يتحد بأي صورة من صور الموجودات.

الأسماء الحسنى: وأثرها الإيماني في الدعاء والعبادة

كما أن للأسماء الحسنى دوراً معرفياً وعقدياً، فإن لها بعداً إيمانياً عملياً يتجسد في حياة العبد؛ فهي الوسيلة التي أنعم الله بها على عباده للتضرع والدعاء إليه، وهو تطبيق عملي للتوحيد الأفعالي. وقد أكد القرآن الكريم هذا المنهج في قوله تعالى:

﴿**قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى**﴾ (الإسراء:110).

ومن الأمثلة العملية على ذلك، نجد كثيراً من الأدعية تبدأ بحمد الله تعالى والتوسل إليه بصفاته العليا، مثل الفضل والعطاء والرحمة، وهذا التعبير عن الشكر يمثل توفيقاً إلهياً، ويظهر أثره الجلي في مناجاة الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام) في (مناجاة الشاكرين): «**فكيف لي بتحصيل الشكر؟ وشكري إيّاك يفتقر إلى الشكر، فكلّما قلت لك الحمد، وجب عليّ لذلك أن أقول لك الحمد**».

وبذلك تصبح هذه الأسماء طريقاً موصلاً إلى المعرفة الإلهية وسمات دالّة على الذات المقدّسة، إذ بها يتجلّى بعض الكمال الإلهي للإنسان.

وهذا ما تؤكّده الروايات الواردة عن أهل البيت (عليهم السلام)، حيث ورد عن الإمام جعفر الصادق (عليه السلام) في بيان حكمة الأسماء: **«فليس يحتاج أن يسمي نفسه، ولكنه اختار لنفسه أسماءً لغيره، يدعونه بها، لأنّه إذا لم يُدعَ باسمه لم يُعرف».**

عدد الأسماء الحسنى ومفهوم الإحصاء

ورد في الحديث النبوي الشريف: **«إِنَّ للهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ».** وقد شكّل هذا النصّ محوراً للنقاش بين العلماء: هل المقصود أن الأسماء الإلهية محصورة بهذا العدد فقط، أم أن النص يشير إلى فضل هذه الأسماء دون نفي وجود غيرها؟ وما المقصود بـــ **«الإحصاء»**؟ هل المراد منه الحفظ والترديد اللفظي، أم يشمل معنى أعمق يتعلق بالمعرفة والعمل بمقتضى هذه الأسماء؟

وفي هذا السياق، يوضح السيد كمال الحيدري أن أسماء الله الحسنى ليست محصورة بعدد معين، بل هي تجليات لا متناهية للكمال الإلهي المطلق في علمه وقدرته. ويؤكد أنَّ المراد من «"**الإحصـــاء**» ليس هو العدّ اللفظي المجرد، بل هو الوسيلة لمعرفة معاني هذه الأسماء وتجسيدها العملي في حياة الإنسان وسلوكه؛ فتصبح أخلاق العبد انعكاساً لتلك الصفات، وهو ما يمثل الجوهر الحقيقي للتوحيد.

وبناءً على ذلك، يُنظر إلى هذا العدد الوارد في الحديث تسعة وتسعون على أنه نموذج مختار من الأسماء، له فضل خاص لمن تعمق في إدراك معانيه والعمل بها. وتُعدّ سيرة الرسول الأكرم (صلى الله عليه وآله وسلم) التجسيد الأصدق لهذا الإحصاء المعرفي والعملي؛ فكانت حياته انعكاساً حياً للصفات الإلهية، حيث تجلت هذه المعاني في أقواله وأفعاله وسلوكه، حتى وصفه الله تعالى بقوله:

﴿**وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ**﴾ (القلم: 4).

خصائص الصفات الإلهية في معرفة الله وتوحيده

ليس الهدف من تناول خصائص الصفات الإلهية الكشف عن كنه الذات الإلهية أو الإحاطة بحقيقتها؛ لأن هذا الأمر، كما تقدّم بيانه، متعذّر على العقل البشري. وإنما ينحصر المقصود في التدبّر في معاني هذه الصفات كما ورد ذكرها في القرآن الكريم، بوصفها الوسيلة التي جعلها الله طريقاً لمعرفته؛ إذ لولا هذه المعرفة الممكنة لانقطعت سبل التعرف على المعبود، ولانسدّت أبواب العبودية، لأن العبادة لا تصح إلا بعد المعرفة.

وتكشف الصفات الإلهية للإنسان أفقين متكاملين في المعرفة؛ أولهما إدراكٌ إجمالي يتحقق عبر التفكر في آثار القدرة الإلهية وعظمة الخلق، حيث يستدل الإنسان على وجود الخالق من خلال نظام الكون ومظاهره، كما في قوله تعالى:

﴿**أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ**﴾ (الغاشية: 17).

ثم تتعمق هذه المعرفة لتبلغ مرتبة أدق، تتمثل في الانتقال من هذا الإدراك العام إلى التأمل في دائرة الأسماء الإلهية نفسها، فيما عبّر عنه بعض المفسرين والحكماء بـ «**السفر من الحق إلى الحق**»؛ إذ لا يكون الاستدلال هنا من الخلق إلى الخالق، بل من الحق – عبر أسمائه وصفاته – إلى شؤون الحق وتجلياته.

فيدرك الإنسان، على سبيل المثال، أن الله «**رؤوف**»، ثم يسعى إلى فهم مراتب هذه الرأفة وآثارها، بقدر ما تسمح به طاقته العقلية المحدودة، مع التسليم بأن الإحاطة المطلقة ممتنعة؛ لأن علم الله غير متناهٍ، وما كان محدوداً لا يمكنه أن يحيط بما هو غير محدود. وفي هذا المعنى ورد عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) قوله: «**لا وَصْفَ يُحيطُ بِهِ**».

وتتسم الصفات الإلهية، في هذا السياق، بضرورة التنزيه المطلق عن كل ما يدل على نقص أو حاجة؛ فالله سبحانه غنيّ بذاته، كامل في صفاته، منزّه عن الفقر والعجز والجهل وسائر الصفات السلبية.

وما يشـهده الإنسـان في عالم الوجود من مظاهر الضـعف والقصـور، إنما يكشـف – بعكسـه – عن كمال الخالق؛ فيقهر جهلنا بعلمه، وضعفنا بقدرته، وفقرنا بغناه، وعجزنا بقوته. ومن هنا، يصبح التأمل في الصفات الإلهية مدخلاً معرفياً أصـيلاً لفهم التوحيد، وتمهيداً لدراسـة أقسـام هذه الصـفات ودورها في ترسـيخ المعرفة التوحيدية.

أقسام الصفات الإلهية (الذاتية والفعلية)

تنقسـم الصـفات الإلهية منهجياً إلى قسـمين رئيسـيين يخدمان المعرفة التوحيدية: الصـفات الذاتية والصـفات الفعلية.

أولاً: الصفات الذاتية

من خلال هذه الصـفات تُعرف تلك الهوية الغيبية التي توصـف بها الذات الإلهية بوجه من الوجوه، وهي ما يسميها المفسرون بـ «**أمهات الأسماء الإلهية**»، وتتضمن: «**العلم، والقدرة، والحياة**».

وتجتمع هذه الصفات الجوهرية كلها في صفة «**الحي**»؛ إذ منها ينبثق العلم والقدرة. وهي صفات لا تنفك عن الذات المقدسة، وتتجلى لنا من خلال الصفات الفعلية؛ فمثلاً: القدرة تتجلى من خلال الإحياء والرزق.

ويُنبّه العلماء إلى أنَّ حقيقة صـفة «**الحي**» لا يمكن إدراكها على وجه الإحاطة؛ لأنها تشـير إلى هوية الذات الإلهية المقدسة التي تُعتبر «**الغيب المطلق**» الذي لا تحيط به العقول، وإنما يشار إليها بالضمير «**هو**».

وإنما تتجلّى هذه الحقيقة للعباد من خلال الاسـم الجامع «**الله**»، الذي عرّف الله به نفسـه لعباده وأظهره لحاجتهم إليه.

ثانياً: الصفات الفعلية

وهي ما يتعلق بأفعال الله تبارك وتعالى تجاه خلقه، كالرزق، والإحياء، والرضـا، والمغفرة، وغيرها. وقد أوضـح المفسـرون بأن لهذه الصـفات حداً في محل التعلق؛ لأنها مرتبطة بموجودات محدودة في الزمان والمكان (كالإنسان والسماء والأرض).

فمثلاً، صفة «**الغفور**» يقابلها «"**شديد العقاب**» عند تعلقها بأفعال العباد، والرضا يُقابله الغضب. ولهذا يُقال: «**الحمد لله منتهى رضاه**» (لأن الرضا فعل متناهٍ)، ولا يصح القول: «**منتهى علمه**» (لأن العلم صفة ذاتية مطلقة لا حدّ لها). وبذلك، تكون الصفات الذاتية هي عين الذات، بينما الصفات الفعلية هي خارجة عن مقام الذات ومنتزعة من مقام الفعل والإيجاد؛ وهو ما يجعل الأولى غير متناهية بتمتّعها بإطلاق الذات، والثانية متناهية بمتناهيات الخلق في عالم المادة.

وقد أوضح السيد كمال الحيدري هذا المعنى بأن حقيقة هذه الصفات هي في أصلها وجذورها غير محدودة لأنها صادرة عن ذات الله الكاملة المقدسة، وإنما التحديد يطرأ عليها عند تعلقها بالخلق وبموجودات محدودة في الزمان والمكان. فمثلاً، الرزق والخلق مرتبطان بالقدرة، وهي من الصفات الذاتية المطلقة.

كما اعتبر الحيدري أيضاً أنَّ صفة «**القيوم**» هي الصفة الكمالية الجامعة للصفات الفعلية؛ لأنها تدلّ على أنَّ الله سبحانه قائمٌ بذاته، وهو المُقوِّم والمُدبّر لغيره من عالم الوجود، فكل شيء محتاج إليه، وهو الغني بنفسه عن كل شيء. وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله تعالى:

﴿**أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ**﴾ (الرعد: 33).

وقد أشار القرآن لهاتين الصفتين الجامعتين في قوله تعالى:

﴿**اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ**﴾ (البقرة: 255).

مركز الوحدة ومفهوم بسيط الحقيقة الإلهية

إنّ من المسلَّمات التوحيدية أنّ الله تعالى هو مركز الوحدة المطلقة، كما قال سبحانه:

﴿**لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ (الشورى: 11).

فالتعدّدية لا وجود لها في ذاته الإلهية المقدّسة؛ إذ لا يُتَصوَّر في حقّه تركيب أو تجزئة، فلا يكون علمه شيئاً غير ذاته، ولا سمعه أو بصره مستقلّين عنها؛ لأنّ التعدّد من خصائص عالم الخلق الذي يقوم على الكثرة وتنوّع المظاهر. وكلّما ابتعد الإنسان عن مركز الوحدة الإلهية رأى صور الكثرة، وكلّما اقترب من هذا المركز تكشّفت له الحقيقة بأنّ الصفات الإلهية في جوهرها واحدة. ولذلك، لا يصحّ القول إنّ الله شيء، وعلمه شيء آخر، أو أن ذاته غير سمعه وغير بصره، بل ذاته كلّها علم وسمع وقدرة. ومن هنا كانت أسماؤه الحسنى التي أُمرنا أن ندعوه بها:

﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ (الأعراف: 180).

إذ إنّ كلّ اسم من أسمائه هو تجلٍّ لكمال من كمالاته، دون أن يقتضي ذلك تعدّداً في ذاته المقدّسة. وبناءً على ذلك، فإنّ وحدته تعالى وحدة غير متناهية، وصفاته الذاتية وأسماؤه الحسنى ليست منفصلة عن ذاته، بل هي عين ذاته المقدّسة؛ فذاته سبحانه "كلّها علم، وكلّها قدرة، وكلّها رحمة". وهذا هو المعنى الذي يُعبَّر عنه اصطلاحاً بـــ **«بساطة الحقيقة الإلهية»**، أي إنّ الذات الإلهية في كمالها المطلق لا تقبل التركيب أو الانقسام أو التجزئة بأي حالٍ من الأحوال.

الفرق بين الصفات الذاتية والفعلية

لقد أوضح العلّامة الطباطبائي في (تفسيره الميزان) الفرق بين الصفتين الذاتية والفعلية قائلاً: **«الصفات الذاتية لله لا تتغير ولا تتبدل، لأنها عين ذاته، وأما الصفات الفعلية فهي تابعة لأفعاله، تظهر بظهور الفعل وتزول بزواله»**.

وعليه، فإن الصفات الفعليَّة كلِّها متعلَّقة بقدرته تعالى وجوداً وعدماً، فيُقال: «هو قادر أن يخلق، وقادر أن لا يخلق، أن يرزق أو لا يرزق». أما في الصفات الذاتية، فلا يُقال فيها: «هو قادر على أن يكون حياً أو لا يكون»؛ لأن وجودها لازمٌ لذاته، لا تنفكّ عنه ولا تتغير.

الصفات الفعلية وتجليها في الخلق

أشار السيد كمال الحيدري إلى أن الصفات الفعلية ليست شيئاً زائداً على الذات الإلهية، بل تتجلى عنها حين يتوجه الله إلى خلقه؛ فهي من جهة الذات «**صـــفات**» ، ومن جهة الخلق «**أفعال**» . وهذه الأفعال هي فيض من وجوده، كما يشعّ النور من الشمس: لا ينقصها، لكنه يكشف عنها ويظهرها. هذا التجلي هو أساس طريق المعرفة عبر التفكر في الخلق، كما في قوله تعالى:

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُولِي الأَلْبَابِ * الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (آل عمران: 190−191).

ومن هذا المنطلق، يتبيّن أن التأمل في نظام الكون يكشـــف أنّ كل ظاهرة، من أدقّ الجزئيات إلى أوســـع المجرات، تحمل في بنيتها دلالة عقلية على عظمة الخالق ووحدانيته. ومن خلال هذا المسار، ينتقل الإنسان من الملاحظة إلى الاســـتنتاج، ليرتقي وعيه من المعرفة النظرية إلى مرتبة الإيمان الواعي، حيث تتجسّـــد المعرفة الإلهية في منظومة الفكر والعمل وتنعكس آثارها في الســلوك والأخلاق، وهو ما ســيتضـــح بصــورة أعمق في الفصل اللاحق المخصّص لبحث آثار معرفة الله العلمية والعملية.

آثار معرفة الله في الحياة العلمية والعملية

إنّ الحديث عن آثار معرفة الله لا يقتصــر على الجانب النظري أو العقائدي، بل يمتد ليشـمل المعرفة العلمية والفلســفية، والســلوك والتطبيق العملي في حياة الإنســان. فالمعرفة التوحيدية ليســت مجرد فكرة مجردة، بل منطلق لفهم الكون، واستكشاف النظام الكوني، وإدراك حكمة الخالق في سننه، كما أنها تُوجّه الفكر والسلوك نحو حياة منسجمة مع قيم الإيمان.

ويجب التنويه إلى أن الجانب العلمي في هذا الفصـــــل لا يرمي إلى إثبات وجود الله تجريبياً، بل إلى قراءة فلســفية ومنهجية لنتائج العلم وســنن الكون في ضــوء مبدأ المســبّب الأول والغاية. وبهذا تكون المعرفة بالله إطاراً تفسـيرياً للكون والحياة، يمنح البحث مصـداقية أكاديمية بعيدة عن المبالغة أو الادعاءات التجريبية غير الموثقة.

أولاً: الأثر العلمي والمعرفي لمعرفة الله

1. معرفة الله والدعوة لاستكشاف الكون

حين نتأمل موقع معرفة الله في بنية العقيدة الإســلامية، نجدها مدخلاً أســاســياً لفهم التوحيد والوجود، وركيزة يُبنى عليها الفكر والسـلوك الإنسـاني. فالمعرفة الحقة بالله تدفع الإنسـان لاسـتكشـاف سـنن الكون وفهم أنماط الحياة والطبيعة وفق نظام محكم دقيق، مما يؤدي إلى نهضة عقلية وعلمية متسقة مع القيم الإيمانية.

2. نماذج تاريخية: علماء المسلمين

قدّم العلماء المســلمون عبر التاريخ نموذجاً واضــحاً يبيّن كيف يمكن أن تؤدي معرفة الله إلى إنجازات علمية عظيمة؛ فالعمل العلمي لديهم كان متجذراً في فهم سـنن الله في الكون. فابن سـينا في فلسـفته وطبّه، **والرازي** في الكيمياء، والخوارزمي في الرياضيات، والحسن بن الهيثم في البصريات، جميعهم رأوا أن العقل مظهر من

مظاهر التكريم الإلهي، وأن اكتشاف القوانين الكونية صورة من صور التعبد لله، وفهم أعمق لمعنى التوحيد في الخلق.

3. نماذج معاصرة: علماء مفكرون

وفي العصر الحديث، يتجلى صدى هذه الرؤية في تجارب بعض العلماء الذين عززت المعرفة الإلهية إيمانهم: جيفري لانغ، أستاذ الرياضيات الأمريكي، الذي اعتنق الإسلام بعد رحلة عقلية طويلة جمعت بين العلم والقرآن. وكيث مور، عالم الأجنة الذي تأثر بالدقة العلمية لما ورد في النصوص الإسلامية عن مراحل خلق الإنسان، مؤكداً أن هذه المعارف لا يمكن أن تصدر من بشر. وعبد الكريم سروش، الذي يرى أن المعرفة الإلهية الحقة تشكّل أساس النهضة الفكرية والعقلانية في المجتمعات الإسلامية

ثانياً: الأثر العملي والسلوكي لمعرفة الله

1. تجسيد المعرفة في الفكر والسلوك

لقد أدرك بعض المفكرين المعاصرين أن معرفة الله لم تكن مجرد مفاهيم لاهوتية مجردة، بل سلوكيات واقعية شكلت نقطة تحول في التاريخ: فقد اعتبر المؤرخ الفرنسي غوستاف لوبون أن الإسلام دين عقلاني أخلاقي أسس حضارة إنسانية متينة. وذكر مايكل هارت في كتابه (الخالدون مئة) أن النبي محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) هو الشخصية الأكثر تأثيراً في التاريخ، لأنه أقام مجتمعاً قائماً على التوحيد والعدالة.

كما رأى الفيلسوف الفرنسي روجيه جارودي أن العودة إلى الإيمان تمثل خلاص الإنسان من اغترابه، وأن توحيد الله هو الطريق إلى تحرر الإنسان من عبودية الاستهلاك والمصالح المادية.

2. التخلق بآثار الأسماء الحسنى: انعكاس المعرفة في السلوك

إنّ أعمق تجسيد عملي لمعرفة الله يكمن في سعي المؤمن للتخلق بآثار أسمائه وصفاته. فعندما يعرف المؤمن أن الله هو «**العدل**»، لا يكتفي بإقرار العدل نظرياً، بل يجعله سلوكاً في كل معاملاته.

وإذا أدرك أن الله هو «الرؤوف الرحيم»، تحوّل قلبه إلى مصـــــدر للرأفة والرحمة تجاه الخلق. هذه العملية المســتمرة من التخلق تمنح الســلوك بعداً روحياً وعملياً، فتتبلور أخلاقيات الفرد في تهذيب النفس بالتواضــع، ومراقبة الذات، وفي التطبيق الاجتماعي بالالتزام بالقيم والعدالة.

3. الدافع العملي: معرفة الله في السلوك النبوي

ومن هنا تأتي أهمية معرفة رسـول الله (صـلى الله عليه وآله وسـلم)، لما يملك من صـفات وعلم وسـلوك؛ وقد أكّد المحققون من علماء الأمة هذه الحقيقة بقولهم: **«ما من كمالٍ أُعطي لنبي إلا أُعطي لنبينا محمد صـــلى الله عليه وآله وسلم»** .

وبذلك يكون **رســول الله** وأهل بيته الكرام مصــابيح هداية في معرفة الله جل وعلا، كما في الحديث الشـريف عنه (صلى الله عليه وآله وسلم):

«إِنِّي تَارِكٌ فِيكُمْ مَا إِنْ تَمَسَّــكْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِــلُّوا بَعْدِي، أَحَدُهُمَا أَعْظَمُ مِنَ الآخَرِ: كِتَابُ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَلَنْ يَتَفَرَّقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ».

وهذا يدل على أن القرآن وآل البيت لا ينفصلان، وهما وجهان لحقيقة واحدة، كما قال تعالى:

﴿**وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾ (النجم: 3–4).

فكل معرفة حقيقية تبدأ من معرفة الله وتوحيده وتنتهي إليه؛ لأن التوحيد ليس فقط أصـل الدين، بل هو أيضـاً ميزان الوعي وبوصـلة الإنسـان في دروب الحياة. فسبحان من لا تُدرك ذاته العقول، ولا تُحيط بكنهه القلوب، ولكن تنطق بجلاله الفطرة، وتشهد بوحدانيته كل ذرة في الكون.

يتبيّن من هذا الفصل أن معرفة الله وتوحيده يشكّلان البنية الأساسية للفكر والعقيدة، ويقدّمان منظومة معرفية متكاملة تجمع بين مقتضـيات العقل وحاجات الروح. فهذه المعرفة التامة بالذات الإلهية وكمالاتها هي الركيزة المعرفية الأولى التي لا يمكن بدونها فهم الغاية من الإرســـال والتكليف. فالإيمان بإله عظيم، عادل، حكيم، يقود بالضرورة إلى التسليم بالحاجة إلى رسالة ومنهج إلهي يصل بين الخالق والمخلوق.

ومن هذا المنطلق، تبرز أهمية البحث القادم في «**المعرفة النبوية**» بوصـــفها الامتداد الطبيعي والضـــروري للمنظومة التوحيدية، وتجسيداً عملياً في الواقع الإنساني.

خاتمـــــة البحــث

لقد كانت هذه الرحلة البحثية استكشافاً معمقاً لمعرفة الله وتوحيده كما جاء في القرآن الكريم، ومحاولة لفهم العقيدة ليس فقط كمجرد مفاهيم، بل كمنهج حياة يوجّه الفكر والسلوك، ويمنح الإنسان رؤية واضحة لمعنى الوجود وهدفه. خلال الفصول السابقة، انطلق البحث من تحديد ماهية التوحيد وأهميته، مروراً بتحليل نموذج سورة "**الإخلاص**"، وتصحيح المفاهيم الخاطئة، وصولاً إلى استكشاف طرق المعرفة الإلهية عبر العقل والفطرة، وتأمل الأسماء والصفات والأفعال الإلهية. وقد تبلورت عدة نتائج جوهرية، أهمها:

** **وحدة المعرفة والخلق:** أن التوحيد يشكل مبدأً معرفياً يفسّر الكون، ويقرّب الإنسان من فهم سنن الخالق بوعي نقدي وعقلاني.

** **التخلق العملي: أن** القيمة الحقيقية للمعرفة تتجسد في السلوك، حيث ينعكس إدراك الكمالات الإلهية في "**التخلق بآثار الأسماء الحسنى**"، ويثمر العدالة والرحمة والإحسان في حياة الفرد والمجتمع.

** **التحصـــين الفكري والروحي:** أن المنهج القرآني في التوحيد يمنح الإنســـان توازناً بين العقل والروح، ويحصنه ضد اغتراب الذات وعبودية المادة، ويقوده إلى حياة قائمة على الوعي والإيمان المطلق.

ومن هذا المنطلق، يبرز البحث القادم في «**المعرفة النبوية**» كامتداد طبيعي وضـروري لهذه المنظومة، حيث سينتقل إلى دراسة شخصية **الرسول الأكرم محمد (صلى الله عليه وآله وسلم)** بوصفه وسيلة التلقي الإلهي والتجسيد العملي الأسمى للتوحيد، مستنداً إلى المرجعية المزدوجة للقرآن والعترة، ليكتمل بذلك الإطار المعرفي والعملي للإنسان المؤمن.

دعاء الختام

نسأل الله العلي القدير أن يتقبل هذا الجهد المتواضع، وأن يجعله نوراً يُنير بصائر الباحثين عن الحقيقة. وأن يرزقنا وإياكم صدق المعرفة، واليقين الصافي، والعمل الصالح، وأن يكون هذا البحث زاداً لنا وللقارئين، وهداية لمن أراد أن يقترب إلى الله تعالى.

اللهم اجعلنا من العارفين بك، الموحّدين لك، السالكين في نور أسمائك، المتخلقين بآثار صفاتك، المحبّين لجمالك، والمقتدين برسولك (صلى الله عليه وآله وسلم) وأهل بيته الكرام في القول والعمل.

خاتمـــــة المجلد الأول

تم بحمد الله وعونه وتوفيقه إنجاز الجزء الأول من هذه السلسلة البحثية: «**بحوث في معارف الإيمان**». نسأل الله أن يكون هذا الجهد خالصاً لوجهه الكريم، ونافعاً لكل باحث عن الحقيقة.

رسالة إلى القارئ الكريم

نرجو أن تكون رحلة التوحيد التي خضـناها معاً في هذا المجلد قد أنارت أمامك آفاقاً من اليقين، وفتحت نوافذ للفهم العميق في معارف الألوهية.

ترقبوا المجلد القادم

في الجزء التالي من هذه السلسلة، سنرتقي في معارج المعرفة لننتقل من "معرفة الخالق" إلى "معرفة الواسطة بين الحق والخلق"؛ حيث سنبحر معاً في رحلة إيمانية فكرية تستكشف أبعاد النبوة، وتتأمل في المقام الشريف لخاتم المرســلين النبي (صــلى الله عليه وآله وســلم)، وذلك في دراســة معمقة تحت عنوان: «**النبوة**». نلتقي لنستكمل معاً مسيرة النور في رحاب المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم).

نلتقي لنستكمل معاً مسيرة النور في رحاب المصطفى (صلى الله عليه وآله وسلم).

إعداد: ليندا عبد الله

التواصل الأكاديمي: lindaabullah92@yahoo.com

المصادر والمراجـــع العربية

أولاً: المصدر الأعلى

- **القرآن الكريم.**

ثانياً: كتب الحديث والسيرة

- الإمام الصادق، جعفر بن محمد (عليه السلام)، *القول المأثور عن التوحيد*، بيروت: دار الكتب الإسلامية، 2000.
- الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام)، *نهج البلاغة*، تحقيق: صبحي الصالح، بيروت: دار الهجرة، 1982.
- الإمام علي بن الحسين زين العابدين (عليه السلام)، *الصحيفة السجادية*، قم: دار الحديث، 1996.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، *صحيح البخاري*، تحقيق: محمد زهير الناصر، بيروت: دار طوق النجاة، 2001.
- بوكاي، موريس، *التوراة والإنجيل والقرآن والعلم*، ترجمة: حسام الدين الآلوسي، القاهرة: دار المعارف، 1987.
- الطوسي، الشيخ محمد بن الحسن، *تهذيب الأحكام*، طهران، 1408 هـ.
- مسلم بن الحجاج، *صحيح مسلم*، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الرياض: دار السلام، 1998.

ثالثاً: كتب التفسير، العقيدة، والفلسفة

- ابن حجر العسقلاني، أحمد، *فتح الباري شرح صحيح البخاري*، بيروت: دار الفكر، 2000.
- ابن رشد، أبو الوليد، *فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال*، تحقيق: محمد عمارة، بيروت: دار الشروق.
- ابن سينا، أبو علي، *الشفاء – العلم الإلهي*، القاهرة: دار المعرفة، 1975.
- ابن كثير، إسماعيل بن عمر، *البداية والنهاية*، دمشق: دار الفكر، 1997.
- إقبال، محمد، *تجديد التفكير الديني في الإسلام*، ترجمة: عباس محمود، بيروت: دار الآفاق، 1984.
- الجويني، أبو المعالي، *المستصفى*، طهران: دار الكتب الإسلامية، 1980.
- الحيدري، كمال، *الصفات الإلهية وأثرها في السلوك البشري*، النجف: مركز النور، 2010.
- الحيدري، كمال، *علم الكلام: نشأته ومساره وسبل دراسته*، قم: مكتبة الحيدري، 2017.
- الحيدري، كمال، *معرفة الله وأسماؤه الحسنى*، قم: مركز الأبحاث العقائدية، 2012.
- الرازي، فخر الدين، *التفسير الكبير (مفاتيح الغيب)*، بيروت: دار الفكر، 1995.

- الرازي، محمد بن زكريا، *الحاوي في الطب والكيمياء*، القاهرة: دار المعارف، 2000.
- الصدوق، الشيخ محمد بن علي بن بابويه، *الاعتقادات*، تحقيق: محمد صادق بحر العلوم، النجف الأشرف، 1963.
- الطباطبائي، محمد حسين، *الميزان في تفسير القرآن*، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1996.
- طنطاوي الجوهري، أحمد، *الجواهر في تفسير القرآن*، بيروت: دار الفكر، 1995.
- محمد عبده، الشيخ، *الإسلام بين العلم والمدنية*، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1993.

رابعاً: السير والعلوم الأخرى

- الحسن بن الهيثم، *المناظر*، تحقيق: علي محمد صالح، القاهرة: مكتبة الثقافة العلمية، 1999.
- الخوارزمي، محمد بن موسى، *الكتاب المختصر في حساب الجبر والمقابلة*، القاهرة: دار المعارف، 1994.
- مالكوم إكس، *سيرة مالكوم إكس الذاتية*، 1993.

المراجـــع الأجنبيـــة

- Chavellier, Françoise. (2008). *Recherche de Dieu dans l'Islam*. Paris: Éditions de l'Aube.
- Chittick, William. (2001). *Islam in the West: An Analytical Study*. New York: Academic Publishing.
- Dawkins, Richard. (2006). *The God Delusion*. London: Blackwell.
- Einstein, Albert. (1931). *The World As I See It*. New York: Covici-Friede.
- Garaudy, Roger. (1998). *Promises of Islam*. [Original Edition].
- Hart, Michael. (1992). *The 100: A Ranking of the Most Influential Persons in History*. New York: Harper Collins.
- Islam, Yusuf (Cat Stevens). *Autobiography*. London.
- Lang, Jeffrey. (1995). *The Struggle for Submission: Some Impressions of an American Convert to Islam*. Herndon, Virginia: Amana Publishing.
- Lings, Martin. (n.d.). *Muhammad: His Life Based on the Earliest Sources*. London: Islamic Texts Society.
- Moore, Keith. (2002). *The Developing Human: Clinically Oriented Embryology*. Toronto: Dar Al-Uloom Al-Haditha.
- Penrose, Roger. (1989). *The Emperor's New Mind: Concerning Computers, Minds, and the Laws of Physics*. Oxford: Oxford University Press.
- Russell, Bertrand. (1927). *Why I Am Not a Christian*. London: Rhodes Press.
- Van Doorn, Arnaud. (2021). *From Atheism to Islam: A Case Study*. The Hague: Dar Al-Maaref Al-Alamiya.
- Van Klaveren, Joram. (2020). *Apostate: From Christian Dogma to the Path of Islam*. Amsterdam: Dar Al-Fikr Al-Hadith.

فهرس البحـث

نبذة عن الباحثة

ليندا عبد الله، باحثة مستقلة في الفكر الإسلامي وعلم الكلام المقارن. يمثل نتاجها العلمي ثمرة شغف بالتعلم وجهد بحثي شخصي مكرس لاستكشاف القضايا العقائدية برؤية تحليلية معاصرة. تهدف من خلال أعمالها إلى تقديم صياغة منهجية دقيقة للتراث الفكري، مع التركيز على المرتكزات المعرفية التي أرساها **العلامة الطباطبائي** و**السيد كمال الحيدري**.

يُمثّل كتاب «**بُحوث في مَعارف الإيمان**» اللَّبنة الأولى من سداسية بحثية متكاملة تهدف إلى بناء منظومة معرفية شاملة في أصول العقيدة، تعتمد التحليل والمقارنة كأدوات أساسية للفهم والبيان.

يُعدّ هذا البحث المجلد الافتتاحي ضمن مشروع علمي متكامل يهدف إلى توضيح مفاهيم التوحيد وفهم العقيدة بأسلوب تحليلي. يستند البحث إلى المنهج العقلي والمصادر الموثوقة، مع الاعتماد بشكل خاص على الأسس المنهجية لـ العلامة الطباطبائي والسيد كمال الحيدري.

يتناول هذا المجلد أساسيات التوحيد، مصححاً المفاهيم الخاطئة الشائعة حول الذات والصفات الإلهية، مع إشارة موجزة للنبوة من منظور التوحيد. وتأتي البحوث القادمة بشكل مستقل ضمن سلسلة "بُحوث في مَعارف الإيمـــان"، وتشمل: النبوة، المعاد، النظام الكوني من منظور علمي قرآني، والأخلاق والسلوك في القرآن.